الشرارة

لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية

المادية
و المذهب النقدي التجريبي

فلاديمير إيليتش أوليانوف - لينين

ملخص حمو خالد
بقلم علي محمود

العدد السابع
يناير 2020

المركز الماركسي - اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية

أهمية سلاح النظرية في بناء الحزب البلشفي
وقيادة الثورة الاشتراكية العظمى في روسيا

سلسلة ملخصات ومقالات حول أهم النصوص اللينينية التي ساهمت في بناء الحزب الاشتراكي الديموقراطي العمالي البلشفي الروسي

المرحلة الأولى:1900-1912

حول كتاب "المادية والمذهب النقدي التجريبي"
فلاديمير إيليتش أوليانوف ـ لينين

المحاور

تقديم ..... علي محمود 4

بصدد كتاب لينين: "المادية والمذهب النقدي التجريبي" ـ ملخص ..... حمو خالد 21

حول كتاب "المادية والمذهب النقدي التجريبي" ..... علي محمود 30

الجزء الأول 30

الجزء الثاني 41

الجزء الثالث 51

الجزء الرابع 63

تقديم

يظل كتاب "المادية والمذهب النقدي التجريبي" للينين أحد أبرز الكتب الماركسية، التي ساهمت في تسليح البلاشفة نظريا وفلسفيا خلال مرحلة الإعداد لبناء حزبهم المستقل، الذي تحقق سنة 1912، كما ساهم الكتاب في تكوين جيل كامل من الثوريين الماركسيين- اللينينيين عبر العالم.

لقد قام لينين في هذا الكتاب بتطوير الفلسفة الماركسية على ضوء آخر الاكتشافات العلمية في مجال علوم الطبيعة و خاصة علوم الفيزياء الحديثة آنذاك، و في سياق مناقشة أخر مستجدات العلوم و علاقة ذلك بمفهوم المادة، و علاقة هذه الأخيرة بالفكر ونظرية المعرفة، و في سياق الرد على القراءات الفلسفية المثالية، التي حاولت استغلال الاكتشافات العلمية الحديثة للهجوم على الفلسفة المادية بشكل عام، و الفلسفة المادية الماركسية خاصة، و في مجال نظرية المعرفة على وجه التدقيق، حيث انتصب التجريبيون النقديون مطالبين بمراجعة الماركسية في مجال نظرية المعرفة، و تركز هجومهم على مفهوم المادة، التي أصبحت مرتبطة في وجودها بالإحساس، بحيث لا تتوفر الأشياء خارج وعينا عن أية استقلالية موضوعية لتصبح مرتبطة بوعينا و أحاسيسنا، مما كان يهدد الفلسفة المادية الماركسية في جوهرها، خاصة و أن الفلسفة التجريبية النقدية أو الماخية، كان لديها أنصارها و أتباعها داخل الحزب البلشفي في ظروف الحقبة الستوليبينية، زمن الردة، التي أصابت الحركة الثورية و الحركة الاشتراكية الديموقراطية الروسية بعد فشل ثورة 1905.

لقد تصدى لينين للتحريفية الفلسفية اعتمادا على المادية الجدلية بما هي وحدة متجانسة ومتداخلة وجامعة بين الديالكتيك والمنطق والنظرية المادية الجدلية للمعرفة، حيث لا انفصال بين المكونات الثلاث.

لقد وضع لينين التعريف الدقيق للمفهوم الفلسفي عن المادة، بحيث، من جهة، أكد على استقلالية الوجود الموضوعي عن إحساسنا و وعينا، و كذلك باعتباره مصدر أحاسيسنا و وعينا، و من جهة أخرى، فصل بين المفهوم الفلسفي للمادة، الذي يرتقي إلى مستوى أعلى من التجريد لمقولة المادة، و المفهوم العلمي للمادة، الذي يدرس مكونات المادة و عناصرها. وقد شكل هذا التدقيق قفزة نوعية، ساهمت في دحض الأطروحات المثالية عن المادة، وجعلت الفلسفة المادية جديرة بأن تكون فلسفة الثورة، لأنها جمعت بين القوانين المادية الجدلية للطبيعة والمعرفة والفكر.

كثيرا ما يسقط المناضلون الماركسيون- اللينينيون في نزعات اختزالية للماركسية- اللينينية و تحويلها إما إلى مجرد تقنيات لإنجاز الثورة (و هذه ظاهرة انتشرت أساسا في دول "العالم الثالث") أو إلى نظرية اقتصادية توفر أجوبة عن إشكالية التخلف (و هذا يؤدي إلى السقوط في الاقتصادوية، بحيث تتحول الاشتراكية إلى مجرد مكننة للزراعة و صناعة ثقيلة باستيراد معامل جاهزة مما يسقط في تبعية تكنولوجية و اقتصادية و عجز عن الخروج من التبعية للسوق الامبريالية) أو إلى نظرية للدولة (كما حصل بالنسبة للماركسية "الغربية"، التي اهتمت بنظرية الدولة و تناست أن تلك النظرية مرتبطة بالثورة، أي ماركس أو لينين الدولة بدل ماركس أو لينين الدولة و الثورة). و قد أثبتت التجربة التاريخية للحركة الشيوعية العالمية و للحركة الماركسية – اللينينية في شمال إفريقيا و في المغرب أن غياب التحصين الفلسفي للمناضلين و المناضلات كان أحد أسباب الانهيار و اللخبطة و الغموض، الذي كان يسود كلما أجهزت مطرقة القمع على المنظمات الثورية الماركسية – اللينينية، و اليوم لا يمكن السكوت عن هذا الغياب و الضعف خاصة عندما نجد أن مفهوم العالم لدى العديد من المناضلين تجتمع فيه كل منوعات الفكر التقليدي والليبرالي و الشعبوي، حيث يؤثر ذلك على المبادئ و المواقف والسلوك و الأخلاق الثورية.

وتعلمنا التجربة الثورية للحركة الشيوعية العالمية أن مجال تكوين المناضلين والمناضلات يمس أساسا جوهر مفهومهم للعالم، حيث عبر سيرورة الممارسة الثورية المستندة إلى النظرية الثورية و البلترة يتم الانتقال عند المناضل و المناضلة، من مفهوم قديم للعالم إلى مفهوم جديد هو المفهوم البروليتاري للعالم.

إن الاطلاع البسيط على التطور الهائل الذي عرفته علوم الطبيعة خلال القرن العشرين و القرن الواحد و العشرين، يثبت راهنية و صحة الأطروحات الفلسفية اللينينية في كتاب "المادية والمذهب النقدي التجريبي"، ذلك الكتاب الذي زودنا بالنظرية الفلسفية العلمية و بالمنهج المادي الجدلي العلمي لمناقشة كل الأطروحات المثالية، التي تحاول الركوب على الاكتشافات العلمية الحديثة من أجل ضرب الفلسفة المادية عموما، و المادية الماركسية خصوصا، و ترويج أفكار دينية و مثالية يقوم جوهرها على فكرة "الخلق من العدم"، "المادة من لا شيء"، وكلما حصل اكتشاف علمي جديد كلما ملأوا الدنيا ضجيجا حول انتصار المثالية (نظرية الخلق الإلاهي للكون) و اندحار المادي. إن وراء هذه الادعاءات يختبئ المشروع الدائم للمثالية من أجل التخلي عن العقلانية وانتصار الظلامية بكل منوعاتها.

ديالكتيك العلوم و أوهام العلماء:

يثبت تاريخ العلوم أن كل مرحلة من تاريخها لها أوهامها. فخلال الحقبة اليونانية القديمة، وحتى ما بعدها إلى حد ما، اعتقد العلماء أن هندسة "أوقليدس" تتضمن كل قوانين الكون، وتبين بعد ذاك أن الأمر ليس صحيحا، ولاحقا، عندما ظهرت نظريات "نيوتن"، بعد تحصيله وتركيبه للمعارف العلمية السابقة عليه (كبلير، جاليلي...)، قيل إن "نيوتن" قال الكلمة الفصل فيما يخص قوانين الطبيعة، فتباكى "لابلاص" حول أنه لا يوجد إلا كون واحد، وأن "نيوتن" كان له حظ اكتشاف قوانينه.

هكذا على سبيل المثال، ظلت نظرية "نيوتن" حول الضوء (théorie corpusculaire)، ولعدة أسباب تاريخية ليس هذا النص مجالا للخوض فيها (نذكر منها فقط أن "نيوتن" كان قد أصدر سنة 1686 كتابا حول الميكانيكا و الجاذبية، وهو الكتاب الذي به فرض نفسه وحشد حوله العديد من العلماء الفيزيائيين حينها، باستثناء "هوك")، فارضة نفسها وسارية المفعول ومسلم بها لمدة تقارب القرنين من الزمن، رغم معاصرتها حينها وصراعها مع نظرية الفيزيائي الهولندي "كريستيان هايغينس" (Christian Huygens)، الذي بلور حينها هو الآخر نظرية "شبه متكاملة " حول الضوء، حيث تموقعت نظريته ضمن إطار النظرية الميكانيكية للضوء القائمة على أسس المبادئ الديكارتية، تبحث عن قوانين الانكسار والانعكاس وعن مصدر وسبب تمدد الضوء وفق خط مستقيم، وكيف للأشعة البصرية (المرئية) القادمة من أماكن متعددة لا نهائية أن تتقاطع وتلتقي من دون أن يمنع بعضها البعض الآخر (للإشارة، لم يهتم "هايغنيس" بظاهرة ألوان الضوء التي كانت تشكل جزءا مهما في نظرية "نيوتن")، معتمدا في ذلك على بعض نظريات معاصريه ("هوك" « Hooke »مثلا الذي كان المدافع الأول عن النظرية "الموجية" للضوء بإنجلترا)، والتي فيها قال بأن الضوء مكون أو هو عبارة عن موجات (théorie ondulatoire de la lumière)، معتمدا في ذلك على النموذج الموجي (استعمال الموجات الكروية، ومستوحيا نظريته من انتشار الصوت) لتتأكد أطروحة "هايغنيس" مع النظرية "الموجية" ل"أوغستين فرسنيل (Augustin Fresnel) بعد التجارب التي فيها خلص هذا الأخير إلى نفس النتائج التي إليها خلص عشر سنوات قبل ذلك "توماس يونغ" (Thomas Young)، رغم عدم سابق معرفته بأعماله، والتي عن طريقها بلور "فريسنيل" ما عجز عنه "يونغ"، ونقصد هنا "نموذج رياضيات للموجات الضوئية" التي سيؤكدها تجريبيا "ليون فوكو" (Léon Foucault) ، والذي معه سيتم اعتماد النظرية "الموجية" بالإجماع (ما عدا "بيوت" Biot الذي بقي يدافع عن النظرية "الجسيمية" ـ الجسيمات أو الجزيئات ـ لنيوتن)

لقد اعتقد نيوتن أن الضوء الذي يتحرك في الفراغ بإمكانه أن يكون أسرع في الماء، والأمر يتعلق هنا بانكسار الضوء، حيث يتغير اتجاهه عندما ينتقل من وسط شفاف إلى آخر كثيف، من الهواء إلى الماء مثلا. إن سرعة الضوء بالنسبة لنيوتن ترتفع عند دخوله وسط كثيف، حيث يقول إن انكسار الضوء عند دخول الماء يعود إلى ارتفاع سرعة جزيئاته المكونة له، والسبب في ذلك عند نيوتن هو قوة جاذبية هذا الوسط التي تؤثر على جزيئات الضوء وتخضعها لقوتها وتدفعها إلى تغيير اتجاهها، ضدا على ما روج له ديكارت من أن مسألة انعكاس الضوء ما هي إلا عملية ارتداد للضوء على سطح المادة كارتداد الكريات على سطح أملس. فمسألة انكسار الضوء وانعكاسه أو انتشاره، هي بالنسبة ل "نيوتن" نتيجة القوة التي تمارسها المادة / الجسم على جزيئات الضوء حين يخترق هذا الأخير وسط تلك المادة أو الجسم، وتكون حركة الضوء في تسارع حين يكون هذا الوسط كثيفا. لقد تم قبول فكرة فعل قوة جاذبية الوسط الكثيف على جزيئات الضوء من دون أن يقدم نيوتن برهانه على ذلك، إلا أنها مكنت حينها من تفسير مسألة الألوان التي تظهر لحظة انكسار الضوء، حيث أثبت نيوتن تجريبيا بصدد مسألة الألوان هذه، أنها جوهرية وعضوية وداخلية للضوء (عكس ما اعتقده ديكارت بهذا الخصوص، وفي نفس الوقت كانت هذه المسألة فكرة مركزية في النقد الذي قدمه "نيوتن" لنظرية "هايغنيس")، وليست فقط نتيجة تفاعل الضوء مع المادة أو الجسم، حيث افترض نيوتن بهذا الصدد أن الجزيئات التي تكون الضوء هي من نوع مختلف وتتحرك بنفس السرعة ولها كتل مختلفة، لهذا فهي حين اختراقها لجسم / مادة ما، تنكسر أو تنعكس بشكل مختلف وفق القوة الكاسرة لذاك الجسم (القانون الثاني لنيوتن، أو ما يسمى بالعلاقة الأساسية للديناميك: F=m.a)، والتي على إثرها ينتج انكسارا، أو قد ينتج انعكاسا للضوء في حالة إن كانت قوة هذا الانكسار قوية جدا بما فيه الكفاية لحدوث الانعكاس... . إن فكرة ارتفاع سرعة الضوء عند دخوله الماء قال بها كذلك كل من "ديكارت" و"هوك"، رغم أن هذا الأخير كان من المدافعين عن النظرية "الموجية"، في حين كان "هايغنيس" قد تنبأ بالعكس، بحيث يعود انكسار الضوء عند دخوله الماء، إلى تناقص سرعة الموجات، مما يعني أن سرعة الضوء في الماء (وسط كثيف) هي أبطأ عنها في الهواء (لقد كانت النقطة الحاسمة في نظرية "هايغنيس" هي اعتباره سرعة الضوء حتى وإن كانت كبيرة،

هي نهائية ومحددة). هذا وقد تأكدت تجريبيا بعد ذلك صحة تناقص سرعة الضوء في وسط كثيف مع التجربة التي قام بها "ليون فوكو" (سنة 1850 حيث أتبث ان سرعة الضوء في الماء = 220 000 km/s) بطلب من "أراكو" الذي أعلن أن إحدى النظريتين يجب ان تستسلم وتخضع لحكم التجربة، وهو المشرف قبل ذلك على أطروحة "فرسنيل". وجاء بعد كل هؤلاء، جيمس كليرك ماكسويل (James Clerk Maxwell) منتصف القرن 19، معتمدا على تجارب "ميخائيل فرداي" (Michael Faraday) الذي سبق له أن اكتشف "الحث الكهرومغناطيسي" و قام بأبحاث حول خصائص المغناطيس الذي يتوفر على قطبين يتضمنان "قوى غير مرئية" تتبادل الجذب فيما بينها، والذي بدوره اعتمد على تجارب هانس أورستد (Hans Oersted)، وقد يكون كذلك قد تأثر بتصورات "أولير ليونهارد"(Léonhard Euler) حول الظواهر الكهربائية والمغناطيسية.

قام "ماكسويل" بإعطاء هذه التجارب والاكتشافات شكلها العام بتحويلها إلى صيغ ومعادلات تجمع بطريقة متماسكة الكهرباء والمغناطيسية، وعن طريق هذه المعادلات التي تشكل اليوم حجر زاوية النظرية الكهرومغناطيسية، بلور "ماكسويل" العلاقة بين المجال الكهربائي والمجال المغناطيسي. معادلات "ماكسويل" هذه، تنبأت بوجود الموجات، وهي في نظريته متألفة من مزيج من المجال الكهربائي والمجال المغناطيسي العرضيين (الموجات الكهرومغناطيسية)، وأن سرعتها يمكن حسابها في نظرية "ماكسويل"، حيث قيمتها قريبة بشكل كبير جدا من القيمة التجريبية لسرعة الضوء. انتهى "ماكسويل" إلى خلاصة أن الضوء يجب أن يكون عبارة عن موجة كهرومغناطيسية تنتمي لما يسمى ب "الطيف الكهرومغناطيسي"، وأنه، أي الضوء، ما هو إلا حالة خاصة للذبذبات الكهرومغناطيسية وذو طبيعة ذبذبية، كما أن انكساره مثلا، ما هو إلا مظهر لتصرف الموجة الضوئية (اعتبر غالبية الفزيائيين في تلك الفترة "ماكسويل" أنه مجنون)، وساهمت خلاصاته بعد ذلك على تحقيق اكتشافات ذات صلة بالحقول المغناطيسية.

وبعد ما يفوق 20 سنة عن نظرية "ماكسويل"، وحوالي ثماني سنوات بعد وفاة هذا الأخير، قام "هيرتز" (Heinrich Hertz) بالتحقق التجريبي من نظرية الموجات الكهرومغناطيسية التي صاغها "ماكسويل" نظريا، عن طريق خلقه لموجات كهرومغناطيسية وتتبع وإثبات انعكاسها وانكسارها وقياس أبعادها وسرعة انتشارها (وهو مكتشف ما يسمى بالتأثير الكهروضوئي). وبهذا التحقق التجريبي من نظرية "ماكسويل"، تعرضت مرة أخرى نظرية نيوتن حول الضوء باعتباره جزئيات (ويقال كذلك جسيمات) على يد النظرية الكهرومغناطيسية لماكسويل، وسقط بها وهم الاعتقاد بنظرية قادرة على تفسير كل شيء، وفي نفس الوقت نشأ وهم جديد حول نظرية "ماكسويل"، حيث اعتقد حينها أنها هي الأخرى استطاعت تفسير كل شيء. فماعدا بعض التفاصيل الصغيرة التي لم تمنح لها أهمية كافية، وتم التغاضي عنها حينها، فإنها كانت كذلك (والقصد هنا بتلك التفاصيل الصغيرة حينها، هو ما أثارته إحدى تجارب "هرتز" التي أبرزت ظاهرة جديدة، حيث حين عرض لوحة معدنية مضاءة بواسطة أشعة فوق بنفسجية انبعث الكهرباء، بينما بواسطة أشعة حمراء لا يحدث شيء رغم الرفع من شدة الضوء، وهذا الأثر "الكهروضوئي" استحال حينها فهمه بناء على نظرية أن الضوء هو مجرد موجة حاملة للطاقة، بالإضافة إلى دراسة إشعاع جسم أسود الذي استخدم كنموذج لدراسة الأجسام الساخنة، حيث طرحت مشكلة الموجات القصيرة والتي أظهرت التجارب تعارضها مع النظرية "الموجية"). لكن، وكما هو الحال في كل مرة ومرحلة، ففي تلك التفاصيل الصغيرة يختبئ الأرنب كما يقول الفرنسيون، فقد كان كافيا لتقلب هذه التفاصيل الصغيرة البناء النظري لماكسويل، وتساهم في نشوء ثورة علمية حقيقية.

استمر الصراع إذن بين النظريتين وإن بشكل باهت جدا في الغالب، في ظل الانتصار الذي حققته نظرية "الموجات"(من "هايغنيس" وصولا إلى عملية التوليف النظري التي بلورها "ماكسويل" باعتبار الضوء هو حصيلة موجة كهربائية وأخرى مغناطيسية (موجة كهرومغناطيسية)، وتعمق معه التساؤل حول طبيعة الضوء: هل يتعلق الأمر فعلا بموجات أم بجزيئات؟

نحن الآن في بداية القرن 20 حيث كان الاتجاه العام يعتقد على أن الاكتشافات الفيزيائية بهذا الصدد قد وصلت نهايتها، وأن المسألة كلها أصبحت تتعلق فقط بالمزيد من التدقيق في القياسات لا غير وإيجاد تفسير لبعض الحالات والتجارب الخاصة جدا، ولم يعد هناك من فيزيائي، حينذاك، يشكك في الطبيعة "الموجية" والغير المتقطعة للضوء، وبالتالي لكل الإشعاعات، ليقوم العالم الفيزيائي بلانك (Max Planck) سنة 1900، الذي أعاد فحص جميع مبادئ الميكانيكا الإحصائية، وتوصل إلى أن الأفكار الكلاسيكية غير قادرة على حل المشاكل المطروحة، واستطاع بشكل دقيق طرح فرضية الانقطاع الطاقي حيث افترض أن انتقال الطاقة بين الجسم الساخن والإشعاع الحراري الذي يبعثه يتم بطريقة متقطعة، وأقحم في هذا الإطار مفهوم "الكوانتا" (غير قابلة للتجزيء بالنسبة ل "بلانك"، وهي ما ستحمل اسم "الفوتونات" لاحقا)، معارضا بذلك فكرة استمرارية عمليات انبعاث الطاقة المشعة وإثبات خطأ النظرية "الموجية" الكلاسيكية بهذا الصدد، وأن طاقة الإشعاع الذي يتم انبعاثه أو امتصاصه يكون في شكل جزيئات (جسيمات) طاقية ذات قيمة محددة (هي ثابتة "بلانك" معامل(x) تردد الإشعاع المنبعث، حيث هنا تم وضع ما سمي بثابتة "بلانك")، غير أن الوضع كان معقدا من حيث الاختبار والتحقق التجريبي، خصوصا أن "بلانك" استعمل نتائج تجريبية سابقة وأنه توصل إلى نتائجه عن طريق عمليات وحسابات رياضيات. هذا في الوقت الذي فيه وجد الفيزيائيون أن خلاصة بلانك تلك هي ثورية للغاية، وانطرح السؤال حينها، إن كانت الطاقة متقطعة، ألا يجب أن يكون الإشعاع نفسه كذلك؟ وبعبارة أخرى، هل هناك جزيئات ضوء؟ وهل من الضروري العودة قرنين من الزمن إلى الوراء وتجاهل النظرية "الموجية" التي تبلورت من "هايغنيس"... إلى "ماكسويل".

من جهة أخرى، ولإعطاء صورة عن الضربات التي تعرضت لها النظرية "الموجية" بعد انتصارها، وهي الضربات التي لم تنحصر فقط في وجود انقطاع في الإشعاع المنبعث ضمن "نظرية الجسم الأسود"، بالإضافة إلى ما سمي ب "كارثة الأشعة فوق البنفسجية"، فقد انتبه العلماء قبل ذلك، إلى أن نظرية ماكسويل التي مكنت حينها من تفسير كل الظواهر الكهربائية،

المغناطيسية والضوئية المعروفة آنذاك، أنها لا تتماشى ولا تتوافق مع مبدأ التحويلات الغاليلي (نسبة إلى غاليلي). فماكسويل، ونقصد هنا معادلاته، تنبأت بأن سرعة الموجات الكهرومغناطيسية لها سرعة الضوء، لكن انطرح السؤال حينها، نسبة إلى أي إطار مرجعي؟ أم أنها كذلك كيفما كان هذا الإطار المرجعي (référence، وقد سمي أحيانا ب "المَعلم")؟ فمعادلات ماكسويل لا تخضع لنسبية غاليلي. ولإنقاذ وحفظ ماء وجه هذه النظرية، تم افتراض أن معادلات ماكسويل التي تنبأت بأن سرعة الموجات الكهرومغناطيسية لها سرعة الضوء، هي صالحة فقط في إطار مرجعي خاص، وهو حيث يكون "الأثير" في حالة سكون، أما في إطار مرجعي أخر، فالحركة نسبة إلى "الأثير" يمكن اكتشافها عن طريق تجربة كهرومغناطيسية داخلية للإطار المرجعي (للإشارة ومن دون الابتعاد كثيرا عن خط الأفكار الواردة هنا، فمسألة "الأثير"، وهو الوسط الذي يمكن من انتشار الموجات الكهرومغناطيسية، تم الجدال حول طبيعته وخاصياته حينها، وخلص إلى أنه عليه أن يتصرف كجسم صلب وفي نفس الوقت أن يخترق كل الأجسام مع عدم منحه أية مقاومة لحركات هذه الأجسام، وإلا فإنه عليه أن يكبح مثلا الكواكب في حركتها...). إن مسألة عدم توافق معادلات ماكسويل مع نسبية غاليلي، و"الحل" النظري الذي قدم لها والذي قبل به العديد من الفيزيائيين، كانت هي الفكرة المركزية التي أزعجت كثيرا إينشتاين الذي أخذها بجدية كبيرة، حيث طرح المسألة على النحو التالي: ماذا سيحدث لو تحركت بسرعة الضوء حاملا معي مرآة؟ إن شاهدت نفسي، وهذا يعني أن الضوء الذي ينطلق من وجهي هو أسرع من سرعة الضوء، وهو ما يعارض معادلات ماكسويل، وإن لم أشاهد نفسي، إذن فأنا أعلم أنني اتحرك من دون القدرة على النظر إلى خارجي، وهو ما يعارض مبدأ نسبية غاليلي ! .

في الواقع، لقد خيضت تجارب متعددة حول سرعة الضوء في إطار مرجعي ما نسبة إلى سرعة الضوء في "الأثير"، نذكر بالأساس التجارب المعروفة في تاريخ العلوم الفيزيائية لكل من "ألبيرت ميكلسون" (Albert Michelson) و "إدوارد مورلي" (Eduard Morley)، وهي التجارب التي أفضت إلى نتائج سلبية، والتي على أساسها خلص إينشتاين إلى بلورة مبدأين (أو فرضيتين): الأول:

تعميم مبدأ نسبية غاليلي (الحركة المنتظمة هي حقيقة نسبية)، و الثاني: سرعة الضوء هي نفسها، ثابتة في كل النظم المرجعية القصورية (نذكر بأنه تم اعتبار أن معادلات ماكسويل هي غير صالحة في جميع النظم المرجعية القصورية، أي الإطار المرجعي الذي يسود فيه القصور الذاتي، مختبر ساكن مثلا، أو له حركة منتظمة غير متسارعة).

خلافا لماكس بلانك الذي ركز على التبادل الطاقي بين الإشعاع والمادة، أعطى إنشتاين بنية هيكلية ("جزيئية") للضوء نفسه، وقام بتطبيقها على "التأثير الكهروضوئي" الذي اكتشفه "هرتز"، ونشر بهذا الصدد مقالته الشهيرة التي بين فيها أن الضوء يتصرف وكأنه مكون من جزيئات طاقية مستقلة، "الكوانتا" أو "الفوتونات"، إلا أن طاقة هذه "الكوانتا" (حزم طاقية ضوئية غير قابلة للتجزيئ) يتم التعبير عنها وفقا لتردد الموجة المعنية (بعد هذا، خاض "ميليكان" (Millikan) بعض التجارب حول التأثير الكهروضوئي، وتوصل إلى اتفاق تام مع توقعات أيشتاين)

بعد كل هذه التجارب والتوقعات والنظريات التي في إطارها اعتملت، أصبح الرأي العام "الفيزيائي" لتلك المرحلة يقبل بوجود "الفوتونات"، ويعتقد بثنائية "موجة ـ جزيئة" للضوء، حيث يتصرف الضوء كجزيئة حين يتفاعل مع المادة، وكموجة حين ينتشر بحرية، ومع ذلك لم تنوجد حينها نظرية كاملة للضوء تعتمد هذه الطبيعة الثنائية للضوء، إلا مع التبلور اللاحق لنظرية متجانسة للمادة: المكانيك الكوانتية، حيث خيضت في سيرورة تبلورها مجموعة من التجارب التي بينت أنه:

1 – حين يتم عرض الإلكترون على شاشة مستشعة، و بملاحظة الومضات الناتجة عن ذلك، اعتبر الإلكترون جسيما.

2- وحين يخضع الإلكترون لتجربة جديدة، انطلاقا من مصدر واحد، مع وجود ثقبان في الشاشة، يمر منهما معا في نفس الوقت خالقا تأثيرا تقاطعيا، أكد على وجود موجة.

هكذا إذن، فإن إلكترونا واحدا و شاشة بثقبين (من ورائها لوحة فوتوغرافية) و مرور الأول من الثانيتين يظهر الإلكترون كموجة.

والخلاصة، هي أن الإلكترون يتصرف كجزيء وكموجة، إنه في مكانين مختلفين و في أشكال مادية مختلفة في نفس الوقت. و مرة أخرى تجسد وتأكد قانون الصراع بين القديم و الجديد، فوقفت الجماعة العلمية مقاومة للاكتشافات الجديدة، و ستصمد هذه المفارقات حتى تبلور ميكانيك الكوانتا الجديد. هكذا نكون إذن قد مررنا من نيوتن إلى ماكسويل، و من هذا الأخير إلى هرتز، و منه إلى بلانك، وصولا إلى إنشتاين ومن بعده ("بروغلي"، "هايزنبرغ"، "شرودينغر"...)، و سيتبين أن فهم ظواهر العالم "سوب أتوميك" (دون الذري) لا يمكن فهمها باستعمال مناهج الفيزياء الكلاسيكية أو الشبه الكلاسيكية، و من هنا تبلور ميكانيك الكواننا و نظرية النسبية، و سيتأكد مرة أخرى خطأ كل محاولة لإعطاء أجوبة نهائية وقطعية عن معرفتنا للعالم، و كما هو الحال دائما عند كل جديد، يعارض المتشبثون بالقديم النظريات الجديدة كما حصل مع "ماكسويل"، "بلانك" و "إنشتاين" و غيرهما.

شكلت ميكانيكا الكوانتا قطيعة مع نوع من الجبرية الميكانيكية (ما يسميه انجلز بالطريقة الميتافيزيقية) و ذلك لصالح مفهوم ديناميكي مرن و جدلي للطبيعة. لقد اكتشفت هذه الفيزياء الجديدة تلك القوى الهائلة، التي تختزنها النواة الذرية، الشيء الذي ساعد كثيرا على استعمال و استغلال الطاقة النووية.

خلاصة القول هنا، فقد تم القضاء على الفصل بين المادة والطاقة بشكل نهائي، إن المادة و الطاقة هما شيء واحد (الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء، وتحول الأولى إلى الثانية والعكس كذلك). هذا و قد سبق لانجلز، و هو يصف الطاقة "الحركة"، أن اعتبرها نمط وجود، بل صفة لصيقة بالمادة.

لقد صدمت قوانين ميكانيكا الكوانتا "الحس السليم" (المنطق الصوري) لدى العديد من العلماء و المتتبعين لتطور العلوم، لأن هذا المنطق الصوري ليس بإمكانه إدراك وحدة التناقض الجدلية، فبالنسبة إليه، إما الجسيم (الجزيئ) أو الموجة، أما وهما معا في وحدة مادية، فذلك بالنسبة له تناقض غير مقبول، مسموح به لدى المثاليين، و من هنا كل المحاولات لشرح الظواهر

المتناقضة في عالم الذرة السفلي (سوب أتوميك) عن طريق المنطق الصوري تنتهي حتما إلى التخلي عن الفكر العقلاني العلمي، و تفتح الأبواب مشرعة أمام المفاهيم المتافيزيقية المثالية.

ونرى التخبط واضحا عند المتشبثين بالهندسة التقليدية، عندما يتصورون النقطة باعتبارها أصغر تعبير عن الفضاء، ليس لها أبعاد، وفي الواقع، فإن النقطة هي عبارة عن ذرات تتضمن إلكترونات وأنوية و فوتونات و جسيمات أصغر فأصغر ... إن النقطة تضيع وسط تدفق لا يتوقف لدوامة من الموجات الكوانتية، إنها سيرورة بدون نهاية، و في الحقيقة لا توجد نقطة ثابتة أو ساكنة، وهي ضربة قاصمة للمثاليين الباحثين عن أشكال "خالصة" وثابتة، حيث تقيم وراء الواقع المادي الملحوظ والمتحرك أبدا.

إن الواقع الأسمى هو العالم المادي اللانهائي الأبدي، المتحول أبديا، فبدل مكان ثابت: نقطة، نجد سيرورة، تدفق لا يتوقف، وكل محاولة لوضع حدود له، على شكل بداية ونهاية، مآلها الحتمي الفشل.

بصدد اختفاء المادة:

سبق وأن جئنا في النص أسفله على ذكر كيفية ادعاء التجريبيين النقديين أن المادة قد تلاشت، وكيف جاء رد لينين على ذلك، والآن نعيد السؤال، هل حقا يمكن أن تختفي المادة؟

هناك في مجال علوم الفيزياء مبدآن أساسيان، وهما:

1 – مبدأ الحفاظ على الطاقة (اقترحه لأول مرة الألماني ليبنيتز في القرن 17 على شكل صيغة حسابية / رياضيات، ضمن سياق مفهوم "القوة الحية" الذي كان يعني حينها الطاقة الحركية).

2 – مبدأ الحفاظ على الكتلة (وهو مبدأ أساسي في علوم الفيزياء والكيمياء، طرحه وأكده تجريبيا "لفوازييه" بعد أن استنتج قبله "جون راي" نظريا صحة هذا المبدأ، وقد كان لإنشتاين بعد ذلك دور مهم في توضيحه وتدقيقه ضمن سياق تبلور ميكانكا الكوانتا).

لقد سبق أن ذكرنا أن إنشتاين برهن على أن الكتلة و الطاقة متناسبتان، و من تمة كانت صيغته / معادلته الشهيرة :$e = mc_2$، بما يعني أن c وهي سرعة الضوء (300 ألف كلم في الثانية)، وe الطاقة التي يتضمنها جسم لا يتحرك وm هي كتلته.

إن كم الطاقة الموجودة في الجسيم متناسب مع كتلته، ومجموع الطاقة يبقى دائما نفسه. إن فقدان نوع من الطاقة يتم تعويضه بنوع آخر من الطاقة (تحول الطاقة الحركية مثلا إلى طاقة كامنة والعكس). إن الطاقة وإن غيرت شكلها باستمرار، تبقى دائما نفسها، وبما أن الكتلة ليست إلا شكلا من أشكال الطاقة، فإن المادة والطاقة لا يمكن خلقهما أو تدميرهما.

لقد أشرنا أعلاه، أن قوانين الفيزياء الكلاسيكية لا يمكن تطبيقها على السيرورات من مستوى "سوب أتوميك"، ومع ذلك هناك قانون في الطبيعة لا يعرف الاستثناء وهو قانون الحفاظ على الطاقة، فعلماء الفيزياء يعرفون أن حمولة موجبة أو سالبة لا يمكن خلقها من لا شيء. إن قانون الحفاظ على الحمولة الكهربائية يعبر بدوره عن ذلك، والأمثلة العلمية التاريخية تأكد ذلك، نذكر منها ما أطلق عليه في إحدى الفترات ب"لغز الطاقة المفقودة" :

. في سياق التجارب والدراسة حول جزيئة "بيتا"، وقف الفيزيائيون على ما أطلق عليه ب "لغز الطاقة المفقودة" والتي تضرب في الصميم مبدأ الحفاظ على الطاقة، حيث أشار "بوهر" (Bohr) بهذا الصدد إلى أن قانون الحفاظ على الطاقة هو غير صالح لجزيئاتها. إلى أن تم حل لغز هذه الطاقة المفقودة بتوقع واقتراح "بولي" (Pauli) بوجود جزيئة ثالثة إلى جانب تحول النترون

إلى بروتون وانبعاث إلكترون، وهي النوترينو التي اعتبرت في البداية "جزيئة شبح"، إلى أن تم التثبت تجريبيا من وجودها ربع قرن بعد ذلك. وهكذا لم يعد بالإمكان الحديث عن شيء اسمه "طاقة مفقودة".

وسط العدد الهائل إذن، الذي لا يحصى، من التحولات (الطاقية بالتحديد)، يظل قانون الحفاظ على الحمولة الكهربائية قائما، كما هو كل قوانين الحفاظ، فليس هناك ولو جزيء صغير من الطاقة تم خلقه أو تدميره، وهذه الظاهرة الأخيرة لن تتم أبدا.

حسب "فرنادزسكي" العالم السوفياتي الشهير فكلنا أبناء الشمس

لماذا نحن أبناء الشمس؟

عندما تتحد البروتونات في الشمس تتشكل أنوية الهليوم، فتتحرر طاقة نووية، جزء منها تبثه الشمس على شكل فوتونات تحتوي على جسيمات طاقة كهرومغناطيسية تلتقطها النباتات، تختزنها هذه الأخيرة بعد تحويلها عن طريق سيرورة "فوطوسانتيز" إلى طاقة كيماوية. إن هذه الطاقة يتم استعادتها من طرف البشر عندما يتغذى على هذه النباتات أو الحيوانات التي سبق لها أن تغذت هي الأخرى عليها، وهو ما يوفر الحرارة والطاقة لجسم البشر: عضلات، الدورة الدموية، المخ ... هكذا هي الحياة إذن على الأرض، عبارة عن سلسلة مترابطة من العلاقات، تعود كلها إلى تلك الطاقة التي توفرها الشمس للحياة على الأرض، وهذا تأكيد مرة أخرى على مبدأ الترابط والكلية المادي الجدلي.

وعلى قاعدة هذا التصور، الذي يؤكد على وحدة العوالم الثلاث: المعدني، النباتي والحيواني، يمكن توجيه النقد الجذري والثوري إلى تلك النظرة "الأنتروبو مركزية" التي تجعل من "الإنسان" مركز الكون وصاحب الأولوية في كل شيء، تلك النظرة التي سقط فيها حتى بعض العلماء السوفيات، والتي يلخصها "ميتشورين" عندما قال: "لا يمكننا أن ننتظر عطايا الطبيعة، بل علينا أخذها، وتلك مهمتنا".

لا يمكننا فصل البشرية، باعتبارها مادة حية، عن السيرورة العامة للمادة التي تتطور باستمرار، فلسنا من عجين مختلف، ولذلك فالنظرة "الأنتروبو مركزية" وتفرعاتها لا علاقة لها إطلاقا بالمادية الجدلية التي تؤكد على كرامة الواقع والحياة.

لقد استطاع لينين أن يقدم لنا تعريفا فلسفيا دقيقا لمفهوم المادة، التي ليست سوى الواقع الموضوعي، الذي يصلنا عن طريق الإدراك الحسي، وهذا الواقع الموضوعي يتضمن الأشياء الصلبة وكذلك الضوء، فالفوتونات هي مادة بنفس درجة باقي عناصر المادة الأخرى، كالإلكترونات و النوترونات والبروتونات...

لقد رأينا أن الكتلة تتحول باستمرار إلى طاقة (ينطبق هذا كذلك على الضوء و الفوتونات)، و الطاقة هي الأخرى تتحول إلى كتلة. إن سيرورة التحول الدائم، التي تميز العالم "سوب أتوميك"، هي تأكيد صارخ على أن الديالكتيك ليس اختراعا ذاتيا محضا للعقل، بل يوافق فعلا سيرورات التحول الموضوعي في الطبيعة، هذا التحول الأبدي اللانهائي، وهذا تأكيد ملموس على أن المادة غير قابلة للتدمير والاختفاء (اللا وجود).

البحث عن "اللبنات الأخيرة للمادة" وأوهام المفهوم المثالي للعالم:

عرف القرن العشرين، ويعرف قرننا الآن استمرار السباق المحموم للعلماء من أجل إيجاد الجسيمات الأخيرة والنهائية، التي ليس من بعدها شيء، والمقصود هنا الأشياء المتناهية في الصغر التي ما بعدها شيء أخر. وبطبيعة الحال، فالاكتشافات العلمية تلعب دورا هاما في تطور المعرفة الإنسانية والحياة المادية للإنسان، لكن العلماء عندما يؤولون اكتشافاتهم، خاصة عندما يقفون أمام تناقضات اكتشافاتهم، ويجدون منطقهم الصوري عاجزا عن تفسير بعض الظواهر، يفتحون الباب للتأويلات المثالية والدينية تعبيرا عن عجزهم عن فهم كنه الاكتشاف العلمي وما يحمله من تناقضات.

منذ ما يزيد عن قرن من الزمن، اعتقد العلماء أن الذرة غير قابلة للتقسيم، وأنها هي أصغر جزء مكون للمواد، وعند نهاية القرن التاسع عشر تم التأكد تجريبيا من وجود الإلكترونات التي تم التنبؤ بها لأزيد من عشرين سنة قبل ذلك، وفي بدايات القرن العشرين تم اكتشاف البروتونات وساد الاعتقاد حينها أنها إلى جانب الإلكترونات تشكل الجسيمات الأساسية للمادة، إلى أن تم من جديد، عشرون سنة بعد ذلك، اكتشاف النوترونات بعد أن تم التنبؤ بوجودها هي الأخرى لسنوات قبل ذلك، و تم التنبؤ بالفوتونات التي تم بعد ذلك التثبت تجريبيا من وجودها المادي هي الأخرى، و اعتبر أن الواقع المادي يتشكل من هذه العناصر، فأعلن العلماء انتصارهم كما لو أنه انتصار نهائي، لكن ما أن مضى زمن قصير حتى برزت اكتشافات أعمق: النترينو، الكوارك، الغلوون، الميون...

إن اكتشاف هذه العناصر كان يظهر مستحيلا قبل العصر الكوانتي، ذلك أن أمد الحياة لدى مجموعة من هذه الجسيمات لا يتعدى جزءا من المليار من الثانية، بل هناك من العناصر المادية من لا يتجاوز جزءا من التريليون من الثانية (التريليون هو مليارx مليار)، فالتاوون يتحول خلال جزء من التريليون من الثانية إلى ميون ثم إلى إلكترون.

هناك جسيمات كثيرة تم اكتشافها أمد حياتها أقل بكثير (حوالي عدة تريليونات من الثانية) ولا زال البحث مستمرا من أجل إيجاد طرق حساب أمد حياتها، فالجسيم المحايد سيغما، يتفكك في قرابة مئة تريليون من الثانية.

وقد تم اكتشاف 150 جسيما آخر، أطلق عليها اسم الهدرون، ثم انتقل الحديث عن الكوارك (Quark) باعتباره العنصر الأصغر والنهائي المكون للمادة، ويتم الحديث عن ستة أنواع من الكوارك (up, down, charm, strange, top, bottom)، توجد بشكل متوازي مع ست جسيمات أكثر خفة ويطلق عليها اللبتون (Lepton)، ثلاثة من هذه الأخيرة بحمولة سالبة وثلاثة بحمولة محايدة، فالمادة مشكلة حسب هذا التصنيف من 12 جسيما، مشكلة من أزواج، فالكوارك مثلا مشكل من زوجين أحدهما بحمولة إيجابية (up) والآخر بحمولة سالبة (down).

هكذا يتلخص الكون بأكمله إذن في: الكوارك (up, down) والإلكترونات، والكل ممسوك ومتحرك بواسطة أربع قوى: القوة الشديدة (أطلق عليها كذلك بالتفاعل القوي أو القوة اللونية) وهي القوة التي تربط "الكواركس" (جمع كوارك) عن طريق جزيئات الغلوون. والقوة الكهرومغناطيسية وهي التي تربط الإلكترونات بالنواة الذرية من خلال الفوتونات. والقوة الضعيفة وهي المسؤولة عن الانشطار النووي، والتي تتجلى تحت تأثير ثلاث بوزونات (w^+, w^-, Z^0). ثم الجاذبية والتي تحكمها النسبية العامة. من دون أن ننسى طبعا "بوزون هيغس" (Boson de Higgs) الذي تم اكتشافه في السنوات الأخيرة، بعد أن كان فرضية لمدة تزيد عن خمسين سنة (سنة 1964 من طرف Peter Higgs)، حيث دار الحديث بهذا الصدد في الأوساط الدعائية المعادية للمادية، عن أنه، أي البوزون، هو "جسيم الله" (تم "تعميد" البوزون" بهذا الاسم في "كاتدرائية" هؤلاء "العلماء" سنة 1993)، الذي منه خلق العالم، ويستمر الحديث، وتستمر معه خرافات الصحافة المختصة بالمواضيع العلمية، ويدخل الدعاة ورجال الدين والفلاسفة المثاليون على الخط لترويج الأوهام والظلامية والفكر الميتافيزيقي.

إن إيجاد اللبنة الأخيرة للمادة هو وهم يحمله العلماء ذوي النظرة المثالية لأن المعرفة العلمية لا حدود لها، فلا يوجد مستوى يمكن الوصول إليه بحيث لن يعود هناك ما يمكن اكتشافه. فالسيرورة الجدلية لتقدم المعرفة لا نهائية تماما كما هو الكون نفسه والمادة، لا ينضبان، فليست هناك بداية كما أن ليست هناك نهاية، إن الكون أبدي، والمادة كذلك، ولا توجد أي سيرورة معزولة عن أي سيرورة أخرى، فكل الظواهر مرتبطة ومتداخلة فيما بينها بدرجات مختلفة.

علي محمود

11- 7 - 2019

بصدد كتاب لينين: "المادية والمذهب التجريبي النقدي"

ملخص

المؤلف: لينين

ترجمة: الدكتور فؤاد أيوب

الطباعة والنشر: دار دمشق

باشر لينين تأليفه لكتاب "المادية والمذهب التجريبي النقدي" في فبراير عام 1908، حيث كان منفيا في جنيف، و لقد أصر على الإسراع في إخراجه، و تم ذلك سنة 1909 في موسكو، باعتبار أن ذلك لا تقتضيه اعتبارات أدبية فحسب، بل **اعتبارات سياسية** خطيرة أيضا نظرا لما قام به عدد من المؤلفين أدعياء الماركسية من حملة حقيقية ضد الفلسفة الماركسية، حيث صدرت في أقل من ستة أشهر أربعة كتب، مكرسة بصورة رئيسية للهجوم على المادية الجدلية، وبالرغم من الاختلافات الحادة في آرائهم السياسية، مثال بوغدانوف[1] في مؤلفه "التجريبية الأحادية"و برمان الذي يقول أن جدلية فردريك انجلز عبارة عن "صوفية"، بينما ادعى بازروف قائلا، لقد عتقت آراء انجلز، وذلك تحت غطاء "النظرية المعاصرة في المعرفة" و فلسفة العلوم الطبيعية المعاصرة"، ولقد كانت تلك طريقة بالغة الخطورة يقول لينين، إذ كان يمكن أن **تضلل** عددا من المناضلين الحزبيين في القاعدة. إنها **تحريفية** في أعلى مستوياتها، تعبر في محتواها عن صراع فكري ونظري في ميدان الفلسفة، بين اتجاهين أساسيين متناقضين بالضرورة، يمتد في التاريخ منذ أن تولد فيه الوعي عند الإنسان، كانعكاس لمستوى بالغ التطور في أعلى أشكال المادة في الطبيعة

[1] ـ بوغدانوف : هو الإسم الأدبي المستعار لألكسندر مالينوفسكي

إلى الآن، وهو يشكل كذلك تعميما فلسفيا للنظرة المادية الجدلية لكل الأسئلة المطروحة آنذاك حول مفهوم المادة ونظرية تطور المعرفة البشرية، اعتمادا على علوم الطبيعة.

إن نظرة ارنست ماخ (1838 ـ 1916) حول أن الأشياء والأجسام هي عبارة عن **مركبات إحساسات** لتشكل النقطة المركزية في مذهبه لكل القضايا المتعلقة بالمعرفة البشرية، والتي سيتطرق لها لينين بدقة و وضوح في الفصول الثلاثة الأولى، فيقول لينين أنها ليست سوى مثالية تصورية خالصة.

إن ما يؤكد عليه لينين أيضا في مسألة الفرق بين المادية والمثالية، خصوصا في بداية البحث، هو أن أية مجابهة فكرية مع ماخ و أتباعه من الروس يجب إحالتها و إرجاعها إلى فلسفة بيركلي، و يقصد بذلك القول، أن الماخية ما هي إلا **اجترار لفلسفة بيركلي المثالية**، التي لا يمكن أن تعتبر العالم بأسره سوى تصوره الخاص، و بالتالي لا يمكن أن نتصور بشرا آخرين فيما عدانا، هذا من جهة، و من جهة أخرى، يتضح الفرق أيضا، في كون أن المادية باتفاق تام مع علوم الطبيعة، تعتبر **المادة** بمثابة **المعطى الأول**، والشعور و **الإحساس** بمثابة **المعطى الثاني**، لأن الإحساس لا يرتبط في شكله الأوضح إلا بأشكال عليا للمادة، بينما يعتبر ماخ أن الإحساس بمثابة المعطى الأول، بالرغم من أنه لا يرتبط بغير عمليات معينة تحصل في قلب مادة منظمة على شكل معين.

إن الأساس المادي في الفرق الذي قدمه لينين في هذا المؤلف، ينبني على ما يقوله انجلز مؤسس الاشتراكية العلمية في المقولة التالية: إن المسألة الكبرى الأساسية لكل فلسفة، وبالأخص الفلسفة الحديثة، هي مسألة **العلاقة بين الفكر والوجود**، بين المادة والروح، أي من أين يستمد الفكر مبادئه الأولى في المعرفة، كما أن هناك جانب آخر لهذه الفلسفة، ألا وهو، ما هي العلاقة القائمة بين أفكارنا عن العالم المحيط بنا وهذا العالم نفسه؟ هل نستطيع في تصوراتنا وأفكارنا عن العالم الخارجي أن ننتج انعكاسا صحيحا عن الواقع؟ وتبعا لجواب كل واحد عن هذه المسألة، يقسم انجلز الفلاسفة إلى معسكرين كبيرين: معسكر مثالي ومعسكر مادي.

ولتوضيح وجه المقارنة بين بيركلي وماخ من جهة ولينين من جهة أخرى نقدم المثال التالي:

يقول بيركلي في مؤلفه الذي ظهر في عام 1710 بعنوان "بحث في مبادئ المعرفة البشرية" ما يلي: إني أدرك بواسطة اللمس، الرخو والصلب والحار والبارد، ويزودني الشم بالروائح، والذوق بالطعام، والسمع بالأصوات ... وكما كانت أفكار عديدة تشاهد مترافقة، فإننا نطلق عليها اسم **تفاحة**، وتؤلف مجموعة أخرى من الأفكار، الحجر والشجر ... وما شابه ذلك من الأشياء الملموسة ... ويضيف أيضا، أن الأفكار لا يمكن أن توجد خارج الذكاء الذي يدركها، **أي أن وجود الشيء يعني أنه مدرك**. كما أنه بالنسبة إليه، **الموضوع والإحساس شيء واحد**، ولا يمكن بالتالي أن يجرد الواحد عن الآخر. كما أنه لا يفترض علاقة السبب بالنتيجة، بل يفترض فقط الإشارة أو الرمز بالشيء المرموز إليه، أي من المفروغ منه أن **الألوهية هي التي تعلمنا بواسطة هذه الرموز التجريبية.**

وفي نفس الوقت يقول ماخ في كتابه "الميكانيك" عام 1883: ليست الإحساسات رموزا للأشياء، بل الشيء بالحري، هو رمز ذهني لمركب من الإحساسات ذي ثبات نسبي. فنستنتج بالنسبة لماخ أن الأشياء والأجسام هي عبارة عن **مركبات إحساسات**. فهو بذلك لا يعيد سوى تكرار ما قاله بيركلي، أي أنه يجابه وجهة نظره الفلسفية بالنظرية المعاكسة، القائلة بأن الإحساسات هي صور أو انعكاسات الأشياء في ذاتها، أي الخارجة عنا بشكل مستقل عن وجودنا وعن إحساساتنا، بدلا من أن يكون قد قدم لنا مفهوما جديدا للمادة، وأحدث بذلك "ثورة علمية" جديدة في الفلسفة كما يدعي ذلك أتباعه.

وخلاصة القول، يؤكد لينين باتفاق مع علوم الطبيعة، أن المادة تثير الإحساس بتأثيرها في أعضاء حواسنا، ويرتبط الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية ...يعني بالمادة المنظمة تنظيما معينا، ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس، وبالتالي فإن إحساسنا، شعورنا هو مجرد صورة للعالم الخارجي، ومن الواضح أن الصورة لا توجد بدون الشيء المتصور، وأن هذا الأخير يوجد بصورة

مستقلة عن ذلك الذي يتصوره، عكس ما عبر عنه أفيناريوس[2] من خلال **نظرية التوافق المبدئي غير القابل للانحلال** بين الذات واللا ذات (البيئة، الموضوع) حيث يقول:

إن الذات واللا ذات نجدهما دائما مجتمعين، ولا يمكن لأي وصف كامل لما نعثر عليه أن يحتوي على بيئة بدون ذات ما تعتبر هذه البيئة خاصة بها، على الرغم من أن الذات وحدها التي تصف ما يعثر عليه، وهذا ما يؤكد عليه بيركلي في قوله "إن العالم هو إحساسي"، أي أن ما يريد أن يفسره أفيناريوس، أن اللا ذات تنتج وتخلق من قبل الذات، يعني أن الشيء مرتبط بالشعور بصورة غير قابلة للانحلال.

حسنا، إذا كانت نظرية العالم الخارجي المستقل عن ذاتنا باطلة، وأن نظرية التوافق المبدئي غير القابل للانحلال هي الصحيحة، فبماذا يمكننا أن نجيب عن سؤال: **هل وجدت الطبيعة قبل الإنسان؟**

يقول لينين أن المادية باتفاق مع نظرية تطور العلوم تؤكد بأن المادية العضوية ظاهرة متأخرة، ثمرة تطور طويل، حيث لم يكن في تلك العصور مادة مزودة بالإحساسات ولا مركبات إحساسات، ولا ذات من أي نوع كان يفترض أنها مرتبطة بصورة غير قابلة للانحلال بالبيئة وفقا لمذهب أفيناريوس.

إن المادة أولية، بينما الفكر، الشعور والإحساسات منتجات لتطور عالي جدا، تلك هي النظرية المادية للمعرفة. وفي محاولة فاشلة من أفيناريوس لإزالة التناقض مع علوم الطبيعة، يطرح نظرية **"الانضمام الذهني"** بحيث يقول:"... يمكن أن نعتقد بأنه من وجهة نظر التجريبية النقدية بالضبط، ليس لعلوم الطبيعة الحق في الاستقصاء عن حقب لبيئتنا الحالية سبقت في الزمان وجود الإنسان، لأنه ... بالنسبة لكل من يطرح هذه المسألة لا يمكن أن يتجنب الانضمام الذهني، يعني أن يتخيل نفسه حاضرا.

---

[2] ـ أفيناريوس : ريتشارد لودفيج أفيناريوس 1843- 1896، من أتباع المدرسة الذاتية.

ويسترسل أفيناريوس قائلا، أن ما يبحث عنه العالم الطبيعي، إنما هو في الأساس **الطريقة** التي يجب أن يتصور بها الأرض، أو العالم الخارجي قبل ظهور الكائنات الحية أو الإنسان، إذا هو انضم ذهنيا في دور المتفرج، بالتالي لا يمكن أن يوجد الشيء مستقلا عن شعورنا، فنحن ننضم إليه دائما، من حيث أننا ذهن يسعى للنفوذ إلى طبيعة هذا الشيء.

وفي الرد على سفسطة هذه النظرية أكد لينين: إذا نحن "انضممنا ذهنيا" أصبح حضورنا خياليا، ولكن وجود الأرض واقعي، كما لو أننا نقول: إذا انضممنا إلى الجحيم ذهنيا بصفة متفرج، فإننا سنتمكن من مشاهدة الجحيم. إننا نلاحظ من نتيجة "نظرية التوافق المبدئي غير القابل للانحلال" المتبوعة بنظرية الانضمام الذهني أنهما تغيبان بجلاء العامل الموضوعي، وبالتالي تسقطان في المثالية، حيث **لا موضوع بدون ذات**، تكون في نفس الوقت نقطة انطلاق الفلسفة التجريبية النقدية لماخ وأفيناريوس.

لنخلص إلى ما يلي: إن **المادة** تعتبر **المعطى** الأول، والشعور والإحساس و **الفكر** بمثابة **المعطى الثاني**، لأن الشيء موجود في ذاته منذ ملايين السنين قبل تشكل الإحساس والفكر كأعلى شكل متطور للمادة، كما يجب أن نذهب من الأشياء إلى الإحساس والفكر وليس من الفكر والإحساس إلى الأشياء والأجسام، لأن المادة وجودها غير مرتبط ومحدد بالإحساس، بينما الإحساس إن وجد فهو مرتبط بالمادة.

لننظر مثلا إلى قضية أخرى: **هل يفكر الإنسان بواسطة الدماغ؟**

يقول أفيناريوس بوضوح، كما يؤكد ذلك ماخ عندما يقول أنه، ليس دماغنا مسكنا للفكر، أو مقره، أو خالقه، أو أداته، أو عضوه، أو حامله، أو قوامه ... فهو يعني أن التصورات ليست وظائف (فيزيولوجية ونفسية وفيزيائية) للدماغ، أي أن الإحساسات ليست وظائف نفسية للدماغ بصيغة نهائية، ليس الدماغ عضو للفكر، كما أن الفكر ليس وظيفة للدماغ.

يرد لينين على ذلك بمقولة انجلز القائلة بأن الفكر والشعور هما منتجات الدماغ البشري، أي أن شعورنا، فكرنا، ليس، مهما ظهرا متعاليين على الحس، سوى نتاجين لعضو مادي، جسدي، هو الدماغ، تلك هي وجهة نظر المادية، التي يدينها أفيناريوس

حين يقول أيضا أن "الدماغ المفكر" هو "وثن علوم الطبيعة"، فهو بذلك لا ينطوي إذن على أي وهم بشأن خلافه المطلق مع علوم الطبيعة في هذه القضية، كما لا يسلم ويعلن بصراحة أنه على اختلاف مطلق مع علم النفس السائد، الذي يرتكب جريمة "تقمص" غير مقبول، أي ما يعني **إقحام الفكر في الدماغ**. ويرد لينين أننا أمام شعوذة فكرية تحاول بذل قصارى جهدها في التظاهر بمحاربة المثالية، فتحول العالم الخارجي إلى إحساس، إلى فكرة، وبالتالي فإن **نظرية التقمص لا تنكر** سوى كون الفكر وظيفة الدماغ.

إذن نخلص إلى ما يلي: **إن الفكر هو وظيفة مباشرة للدماغ كما أن الدماغ هو مسكن الفكر**.

لننتقل إلى قضية أخرى تتعلق ب **السببية و الضرورة في الطبيعة**، و التي تتمتع بأهمية خاصة في تحديد الاتجاه الفلسفي، يقول لودفيك فويرباخ في كتابه "جوهر الدين" أنه لا يمكن أن ندرك الطبيعة إلا من خلال الطبيعة نفسها، وليست ضرورتها منطقية أو بشرية، ولا ميتافيزيقية أو رياضية، و الطبيعة هي وحدها الكائن الذي لا نستطيع أن نطبق عليه أي قياس بشري، على الرغم من أننا نقارن ظواهرها ونطلق عليها أسماء، كي نجعلها مفهومة بالنسبة لنا، و على العموم نطبق عليها تعابير و تصورات بشرية كالنظام و الهدف، والقانون، ونحن مجبرون على ذلك من جراء لغتنا. هل يعني هذا أنه لا يوجد أي نظام في الطبيعة؟ بحيث يمكن مثلا أن يتلو الصيف الخريف ... وأنه لا يوجد أي هدف، بحيث لا يقوم مثلا أي اتساق بين الرئتين والهواء، إن هذا لهراء.

وبذلك فهي رؤية مادية للمسألة، وعلى العكس من ذلك، فإنه من الواضح حقا أن الاتجاه المثالي الذاتي (الإيماني، المعتقد بالله) في مسألة السببية واستنباط نظام الطبيعة وقوانينها ليس من العالم الموضوعي الخارجي، بل من الشعور والعقل والمنطق، لا يفصل العقل البشري عن الطبيعة فحسب، **بل يجعل الطبيعة جزءا من العقل بدلا من أن يعتبر العقل جزءا من الطبيعة**. كما يؤكد انجلز بهذا الصدد أن التصور البشري للسبب والنتيجة يبسط دائما بعض الشيء الارتباطات الموضوعية للظواهر الطبيعية، فلا يعكسها إلا بصورة تقريبية، عازلا بصورة مصطنعة هذا المظهر أو ذاك من عملية شاملة واحدة. وبالتالي يستنتج

لينين أن انجلز يقر بالأسباب الموضوعية والضرورة في الطبيعة، بالإضافة إلى اعترافه بالطابع النسبي لانعكاساتنا، يعني الانعكاسات التقريبية، **وبالتالي إننا نشتق الفكر من الطبيعة ولسنا نشتق الطبيعة من الفكر.**

إذن نخلص إلى ما يلي: إن مذهب الاعتقاد بالله يستدل على وجود كائن مختلف عن الطبيعة يحمل النظام والهدف والقانون إلى الطبيعة، التي هي عشوائية في ذاتها وغير مبالية بكل تحديد، وكأنها هي السبب في حدوث النتيجة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إن ما هو علة في هذا المكان، وهذه الآونة، يصبح نتيجة في ذلك المكان، وتلك الآونة، والعكس صحيح.

وتوجد قضية أخرى أساسية تحدد اختلاف الاتجاهات الفلسفية وهي:

هل المكان والزمان واقعيان أم مثاليان؟

وهل مفاهيمنا النسبية عنهما مقاربات لأشكال الوجود الواقعية بصورة موضوعية؟ أم أنها ليست سوى منتجات للفكر البشري الذي هو في سبيل النمو، والانسجام، والتنظيم؟

فلنبدأ بالطرح المادي للمسألة، حيث يقول فيورباخ، أنه، ليس المكان والزمان مجرد شكلين للظواهر، بل شرطين جوهريين للوجود، ويضيف انجلز، أن الوجود خارج الزمان هو عبث فظ كمثل الوجود خارج المكان.

إذن فبالنسبة للينين، ليس في الكون سوى المادة في حالة الحركة، وهذه الحركة لا يمكن أن تتم إلا في المكان والزمان، وعلى النقيض من ذلك يقول ماخ أن المكان والزمان منظومتان متناسقتان من مجموعة من الإحساسات، ويضيف:

ليس الإنسان بإحساساته هو الذي يوجد في المكان والزمان، بل المكان والزمان هما اللذان يوجدان في الإنسان.

إن وجود الطبيعة في المكان والزمان، المقدر بملايير السنين، بصورة سابقة عن الإنسان والتجربة البشرية، يبرهن على مدى **عبث** هذه النظرية.

ولنخلص إلى ما يلي: **لا وجود لشيء بدون حدود مكانية وزمانية.**

أما فيما يخص قضية الضرورة والحرية، يعترف انجلز أن هيجل هو من قرر بصورة صحيحة العلاقة بين الحرية والضرورة، بحيث يقول: ليست الضرورة عمياء إلا بمقدار عدم فهمها. ويوضح ذلك لينين من وجهة نظر المادية، أنه ما دمنا نجهل قانونا من قوانين الطبيعة، فإن القانون الموجود والفاعل بمعزل عن ذهننا وخارج ذهننا، يجعل منا عبيدا حتى نصبح **أسيادا** للطبيعة، على العكس، فإن الماخيين يستمدون من ماخ نتفة من اللاأدرية وقبضة من المثالية، ويضيفون له شرائح من مادية ماركس الجدلية، ويسمون هذا الخليط تطويرا للماركسية، حيث يعبر عن ذلك ماخ في كتابه "الميكانيك"، أن الآراء الدينية تظل شؤونا فردية تماما، ما دام الفرد لا يسعى لفرضها على الغير، أو ليطبقها على مسائل تتعلق بمجال آخر.

كانت تلك مختلف القضايا الأساسية، التي كانت تقسم الاتجاهين الأساسيين في الفلسفة إلى معسكرين، مادي ومثالي، ولا خليط بينهما، حيث يقول لينين: **"حكوا اللاأدري تجدون المثالي."**

خلاصة:

إن العلوم الطبيعية تقود إذن إلى **وحدة المادة،** وإن المادة تلاشت لا تعني سوى تلاشي الحد الذي عرفنا المادة ضمنه حتى هذا الحين، و إن معرفتنا تتغلغل أعمق فأعمق، وأن خصائص المادة التي كانت تبدو لنا سابقا، مطلقة، ثابتة، و أولية تتلاشى، و تنكشف الآن على أنها نسبية، مميزة لبعض حالات المادة فقط، ذلك أن الخاصية الوحيدة للمادة، التي تحدد بها، والتي تسلم بها المادية الفلسفية هي خاصية كونها واقعا موضوعيا، ووجودها خارج ذهننا، لأن مفهوم المادة لا يتضمن معرفيا شيئا سوى الواقع الموضوعي الموجود بصورة مستقلة عن ذهن الإنسان الذي يعكسه.

إن الشيء الوحيد والثابت من وجهة نظر انجلز، هو أنه في الذهن البشري ينعكس عالم موضوعي خارجي موجود ومتطور بصورة مستقلة عن الذهن، ولا يوجد بالنسبة لماركس وانجلز أي ثبات آخر، وأي ماهية ثابتة، وأي **جوهر مطلق** الخ. إن ماهية الأشياء أو الجوهر **نسبية أيضا،** وهي لا تعبر إلا عن درجة عمق المعرفة البشرية للأشياء، فإذا كان عمق المعرفة بالأمس لا يتجاوز في

أيامنا هذه، الكهرباء والفوتون، فإن المادية الجدلية تلح على الطابع العابر النسبي التقريبي لكل هذه المعالم لمعرفة الطبيعة المكتسبة بفضل العلم البشري المتطور. إن السيطرة على الطبيعة، التي تتمظهر في الممارسة، تنتج عن انعكاس صحيح موضوعيا يحصل في الذهن البشري لظواهر الطبيعة وعملياتها، وهي أن البرهان على أن هذا الانعكاس (ضمن الحدود التي تكشفها لنا الممارسة) حقيقة أزلية، موضوعية ومطلقة.

وفي الأخير يخلص لينين إلى أن الماخية أولا مرتبطة إيديولوجيا بمدرسة واحدة في فرع واحد من العلوم الطبيعية الحديثة. وثانيا، وهذا هو المهم، أن الماخية ترتبط بهذه المدرسة ليس بما يميزها من جميع التيارات الأخرى والمذاهب الصغيرة في الفلسفة المثالية، بل ما هو مشترك بينها وبين المثالية الفلسفية عامة.

إن ماخيونا، يقول لينين، يتبعون الموضة بكل خنوع، سواء في الفلسفة أم في العلوم، وبالتالي فهم ينحرفون نحو فلسفة رجعية، هذا **الانحراف الفلسفي** إلى الرجعية، الذي لم يكن سوى انعطافا مؤقتا، سوى مرحلة قصيرة من المرض في تاريخ العلم، سوى وعكة من وعكات النمو، منشأها في الدرجة الأولى الانقلاب السريع في المفاهيم القديمة المقررة، ذلك أيضا لكونها كانت عاجزة عن الارتفاع مباشرة ودفعة واحدة.

حمو خالد

2018 ـ 12 ـ 04

حول كتاب "المادية والمذهب النقدي التجريبي"

فلاديمير إليتش أوليانوف ـ لينين

الجزء الأول

عند انتهاء الثورة الروسية سنة 1905 بالفشل، واستطاعة القيصرية تغيير موازين القوى الطبقية لصالحها، دخلت روسيا مرحلة جديدة في تاريخها، أطلق عليها اسم "المرحلة الستوليبينية"[3].

بعد الموجة الثورية، التي صاحبت انطلاق ثورة 1905، أعقبتها مرحلة جزر كان لها أثر كبير على فئات المثقفين المعارضين للنظام القيصري، حيث انتشر اليأس و ساد الانحلال الأخلاقي، و برزت حالة التفكك في هاته الأوساط، بل الأنكى من ذلك أن عددا لا بأس به من مثقفي الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي قد انتقل إلى معسكر أعداء الماركسية، فانطلقت محاولات

[3] ـ الستوليبينية نسبة إلى ستوليبين) بيوتر أركدييفيتش (سياسي روسي رجعي أصبح وزيرا أولا للقيصر نيكولا الثاني من 8 يوليوز 1906إلى 5 سبتمبر .1911 وكان ستوليبين عدوا لذودا للثورة وللاشتراكيين الديموقراطيين الروس، عرف بالمشانق الكثيرة التي نصبها على امتداد روسيا إلى حد سمى الشعب الروسي تلك المشانق ب " ربطة عنق ستوليبين.(Cravate de Stolypine)" وقد اغتال الاشتراكي الثوري الروسي ديمتري بوغروف ستوليبين يوم14 سبتمبر.1911

ما سمي بمراجعة النظرية الماركسية، الشيء الذي استلزم من لينين توجيه رد قوي على التحريفيين من خلال كتابه "المادية و المذهب النقدي التجريبي".

بالعودة إلى روسيا تلك المرحلة، نجد أن الوضع السياسي في البلد قد عرف ما سمي بانقلاب 3 يونيو 1907، حيث أقدم القيصر و الحكومة الروسية، على حل دوما الدولة، خارقة بذلك بيانها في 17 أكتوبر 19052، الذي ينص على أنه "لا يمكن سن قوانين جديدة إلا بموافقة الدوما".

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في البلاد فتم حل البرلمان، و تم تقديم أعضاء الفريق الاشتراكي الديموقراطي في البرلمان إلى المحاكمة، فتم إرسال ممثلي الطبقة العاملة إلى السجون و المنافي، و استغل النظام القيصري الوضع فسن قانونا انتخابيا جديدا، و طريقة جديدة للاقتراع لانتخاب الدوما الثالثة ساعدت في زيادة ممثلي الملاكين العقاريين و البورجوازية التجارية و الصناعية، و تم التقليص بشكل كبير لعدد ممثلي العمال و الفلاحين.

ـ الدوما الثالثة، الطبقات والأحزاب السياسية

لقد كانت الدوما الثالثة، كما سماها البلاشفة، دوما ل "المائة السود"[4] و الكاديت.

[4] ـ المائة السود :حركة قومية ملكية رجعية روسية ظهرت خلال ثورة 1905 الروسية وشكلت أقصى اليمين الرجعي المناهض للثورة.

- الملاكون العقاريون الإقطاعيون

لقد كانت الدوما الثالثة (البرلمان الروسي) تتكون من ملاكين عقاريين إقطاعيين رجعيين بشكل كبير، كانوا لا يزالون يضربون الفلاحين، بل يطلقون عليهم النار، كلما تحرك الفلاحون دفاعا عن حقوقهم و مطالبهم، و كانوا ينظمون حملات تصفية جماعية لليهود، و ينهالون بالعصي على العمال المضربين أو المتظاهرين، و تميزوا خلال ثورة 1905 بإحراقهم للمقرات التي تعقد فيها التجمعات خلال الأيام الثورية.

لقد كان هؤلاء يتميزون بالدعوة إلى قمع وحشي للعمال، و يدافعون عن سلطة لا محدودة للقيصر، و قد سبق لهم أن رفضوا بيان 17 أكتوبر 1905[5].

- حزب الأكتوبريين (اتحاد 17 أكتوبر)

[5] . بيان 17 اكتوبر 1905 هو البيان الذي أصدره القيصر الروسي نيكولا الثاني، وأعلن فيه، عن دعوته إلى انتخاب مجلس الدوما الأول (البرلمان الروسي)، وذلك تحت ضغط الأوضاع الثورية في روسيا آنذاك.

ينتمي هذا الحزب إلى اليمين، ويعكس مصالح الرأسمال الصناعي الكبير، و كذلك مصالح الملاكين العقاريين الكبار، الذين ينتجون من أجل التصدير بطرق رأسمالية، و ما يميز هذا الحزب عن الجماعة الأولى هو إعلانهم الاتفاق اللفظي مع بيان 17 أكتوبر، و في الواقع كانوا يساندون السياسة الداخلية و الخارجية للحكومة القيصرية.

- حزب الكاديت (الحزب الدستوري الديموقراطي)

مثل هذا الحزب داخل الدوما الثالثة مصالح البورجوازية الروسية، و كان له مجموعة من القواعد سواء في الدوما الأولى أو الثانية.

خلال ثورة 1905، و بعد هزيمتها أسقط الكاديتيون قناعهم الديموقراطي، و تحركوا كملكيين حقيقيين يدافعون عن الملكية. خلال 1905، أصدر مجموعة من الكتاب الكاديت المرموقين، مجموعة نصوص تحت اسم فيكلي (لبنات) قاموا من خلاله و باسم البورجوازية بشكر القيصر لكونه قام بسحق الثورة، و في سياق خنوع تام للقيصرية، و في جو المشانق و المعتقلات و المنافي كتب هؤلاء "لنبارك هذه السلطة، التي وحدها، ببنادقها و سجونها ما زالت تحمينا (نحن هنا تعني البورجوازية اللبرالية) ضد الغضب الشعبي".

- مجموعة التروفيك[6]

كانت هذه المجموعة الصغيرة و القليلة العدد، تمثل مصالح البورجوازية الصغيرة الديموقراطية، وظلت هذه الجماعة تتأرجح بين الكاديت و الديموقراطية العمالية، ذلك أنها كانت نتاج وضع الملاكين الصغار (Petite exploitation).

كان لينين، تجاه هذه الجماعة، يدعو تكتيكيا البلاشفة إلى مساعدة هؤلاء الديموقراطيين البرجوازيين الصغار و انتزاعهم من تأثير اللبراليين، و تشكيل معسكر الديموقراطية ضد الكاديت المناهضين للثورة، و ليس فقط ضد اليمين.

بعد حلها للدوما الثانية و اعتقال أعضاء الفريق الاشتراكي الديموقراطي داخلها، بدأت الحكومة القيصرية سياستها القائمة على تصفية المنظمات السياسية و الاقتصادية للبروليتاريا، فأصبحت السجون الرهيبة و القلعات و منافي سيبيريا ملأى بالثوريين، الذين كانوا يتعرضون للضرب و التعذيب و يتم إرسالهم إلى المشانق.

[6] ـ التروفيك :فريق داخل الدوما الثالثة، وكان يمثل مصالح الفلاحين الصغار.

- مرحلة الإرهاب الستوليبيني :

خلال هذه المرحلة قطعت روسيا فترة رهيبة من تاريخها، فقد كان "المائة السود" في أوج نشاطهم الإرهابي القمعي، وكان ستوليبين قد ملأ روسيا بالمشانق، حيث تم شنق الآلاف من الثوريين، وقد أطلق الشعب الروسي على هاته المشانق اسم "ربطة عنق ستوليبين"، و هو اسم أطلق على حبال المشنقة، التي نصبها ستولبين للثوريين في كل مكان.

لقد استمات ستوليبين في محاولته الدفاع عن القيصرية و إنقاذها من السقوط، فحاول استغلال التأثير الإيديولوجي للقيصر وسط الفلاحين، فلجأ إلى مناورة كبيرة، استهدف بها تقوية الدعم للقيصر في البادية، و ذلك بتعزيز طبقة البورجوازية القروية (الكولاك[7]).

هكذا، و في سنة 1906 سن ستوليبين قانونا زراعيا جديدا يسمح للفلاحين بالانسحاب من المير[8]، و الإقامة في الخوطورس (الضيعات المعزولة). بهذه السياسة، قام ستوليبين بضرب الملكية الجماعية للأرض، من خلال دعوة الفلاح إلى أخذ قسمته كملكية شخصية و الانسحاب من المير، و أصبح بإمكانه بيعها خلافا للسابق. و بهذه الطريقة اغتنى الكولاك بشرائهم للأراضي

[7] ـ الكولاك :هم الفلاحون الأغنياء الروس، ومقابل هذه الطبقة الفلاحية في روسيا، كان هناك الموجيك (الفلاحون الفقراء) وهم الأغلبية الساحقة في الريف الروسي.

[8] ـ المير :الجماعة الفلاحية القروية الروسية قبل الثورة، وكانت تقوم على الملكية الجماعية للأرض.

بثمن بخس، في وقت أصبح فيه أكثر من مليون فلاح بدون أرض، و أفلسوا، و كان من اللازم إعطاء أحسن الأراضي للكولاك، كما قام ستوليبين و حكومته بتقديم قروض هامة للكولاك لشراء الأراضي و تكوين ضيعاتهم، هكذا جعل ستوليبين من طبقة الكولاك مدافعين عن الأوتوقراطية القيصرية. و من 1906 إلى حدود 1915، انسحب أكثر من مليوني مزارع من المير، و تفاقمت وضعية الفلاحين الصغار و الفقراء، و تعمقت الفوارق الطبقية وسط الفلاحين، مما ولد انفجار صراعات و نزاعات بين الفلاحين الصغار و طبقة الكولاك، و أصبح الفلاحون يدركون بأنهم لن يحصلوا على أراضي الإقطاعيين طالما استمرت حكومة القيصر و دوما الملاكين العقاريين و الكاديت.

لقد كانت سنوات 1907 – 1909 فترة تكون كثيف لضيعات الكولاك، كما أن حركة الفلاحين تراجعت خلال هذه الحقبة لتعود من جديد خلال حقبة 1910- 1911، و ذلك على قاعدة الصراع بين الفلاحين الجماعيين وضيعات طبقة الكولاك، لقد ازدادت قوة هذه الحركة ضد الملاكين العقاريين و طبقة الكولاك.

عرفت الصناعة خلال هذه الحقبة تعمق سيرورة التمركز بازدياد الشركات الصناعية الضخمة، و تمركزها بين يدي مجموعات رأسمالية قوية، فتشكلت التروستات وغيرها، وحصل نفس الشيء بالنسبة للأبناك الكبرى التي تزايد عددها، و ازداد كذلك دورها في الصناعة، و واكب ذلك دخول رساميل أجنبية (فرنسية و انجليزية) إلى روسيا، لقد أصبحت الرأسمالية في روسيا ذات طابع

احتكاري امبريالي. لكن رغم كل هذا التطور في الصناعة، ظلت روسيا بلدا متخلفا بالمقارنة بأوروبا، و في نفس الوقت ذات تبعية للرساميل الأجنبية.

-المثقفون :

كانت هذه الفئة الاجتماعية الأكثر تأثرا بهزيمة 1905، فرفاق الطريق هؤلاء، اللذين جاؤوا من وسط بورجوازي ملتحقين بصفوف الثورة، عندما كانت تعرف انعطافة قوية، تركوا الحزب أيام الردة الرجعية. بعضهم التحق بصفوق العدو، و البعض الآخر فضل العمل فيما تبقى من جمعيات عمالية شرعية، محاولين صرف البروليتاريا عن طريق الثورة، وذلك عن طريق ضرب الحزب الثوري للبروليتاريا، لقد تأقلم هؤلاء مع الرجعية و النظام القيصري. و قد استغلت الحكومة القيصرية وضعية هزيمة الثورة لاستقطاب رفاق الطريق الأكثر جبنا للعمل كمخبرين.

لقد كان الخونة السيئ السمعة و المخبرين، اللذين بتتهم الأوخرانا[9] داخل المنظمات العمالية، و داخل الحزب، يتجسسون من الداخل و يبيعون الثوريين.

[9] ـ الأوخرانا :هي الاسم الروسي ل "فرقة الحفاظ على الأمن والنظام العام "أي البوليس السياسي السري للإمبراطورية الْقيصرية، من نهاية القرن 19 وإلى حدود سقوط النظام القيصري سنة.1917

و في سياق هذه الأوضاع، و على الجبهة الإيديولوجية برزت شرذمة من كتاب الموضة، اللذين "ينتقدون" و "يغتالون" الماركسية، مستخفين بالثورة، و ممجدين للخيانة و مستنقع الرذيلة باسم تقديس حرية الفرد.

هكذا، في مجال الفلسفة تعددت محاولات "نقد" و "مراجعة" الماركسية، و برزت في نفس الوقت أنواع شتى من التيارات الدينية، تختبئ تحت أقنعة "علمية" مزعومة. لقد أصبح نقد الماركسية موجة منتشرة، لقد كان كل هؤلاء السادة رغم تنوعهم الأقصى يتبعون هدفا واحدا مشتركا، و هو صرف الجماهير عن الثورة، و لقد انتقلت العدوى إلى داخل الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي بتياريه، البلشفي أمثال (بوجدانوف و بزروف و يوناتشارسكي الذين التحقوا بالبلاشفة سنة 1905) و المنشفي أمثال (إيوشكفتش و فالانتينوف) .

لقد صوب هؤلاء و أولئك، و في نفس الوقت، نقدهم للأسس الفلسفية و النظرية للماركسية (المادية الجدلية و أسسها العلمية و التاريخية أي المادية التاريخية). لقد كان النقد منافقا و مغطى بقناع الدفاع عن المواقف الأساسية للماركسية، و يدعي أصحابه أنهم بالنسبة للأساسي فهم ماركسيون، لكنهم يريدون تطوير الماركسية و فصلها عن بعض المبادئ الأساسية. و في الواقع، فقد كانت هذه الفلول معادية للماركسية، تحاول ضرب مبادئها النظرية، في نفس الوقت الذي كانوا فيه، و بنفاق كبير ينكرون عداءهم للماركسية، بل ظلوا يصرخون لمن يريد أن يسمعهم بأنهم ماركسيون.

لقد كان هذا النقد المنافق يهدف إلى تغليط المناضلين القاعديين للحزب، ثم إن نقدهم المنافق كان يشكل خطرا بالنسبة للحزب، لأنه يتحالف مع الحرب، التي كانت تشنها فلول الرجعية ضد الحزب و الثورة. و في هذا السياق ظهرت فئة جديدة من المثقفين، تخلت عن الماركسية، و أصبحت تدعو إلى بناء دين جديد، و قد أطلق عليهم اسم "الباحثون عن الله" أو "بناة الله".

أمام حالة التفكك و الانحلال هاته، أصبح من الضروري توجيه رد قوي على هؤلاء المرتدين عن الماركسية، عبر نزع أقنعتهم و تعرية أهدافهم، وذلك للدفاع، و الحفاظ، على المبادئ النظرية للحزب الماركسي الثوري. لقد كان البعض يعتقد أن بليخانوف و بعض أصدقائه المناشفة سيتحملون مسؤولية الرد، إلا أن هؤلاء ما أن دبجوا بعض المقالات حتى تراجعوا إلى جحورهم.

لقد كان لينين هو من تحمل عبء هذه المهمة التاريخية، من خلال نشر كتابه الشهير "المادية و المذهب النقدي التجريبي" سنة 1909.

يقول لينين في هذا الكتاب: "في أقل من ستة أشهر ظهر أربعة كتب، مخصصة بشكل أساسي، تقريبا بالكامل، للهجوم على المادية الجدلية، إنها أولا "محاولات حول فلسفة الماركسية" (كان من الأحسن القول ضد) سانت بترسبورغ 1908 (مجموعة مقالات لبازروف و بوجدانوف و لوناتشرسكي و برمان وهلفود و إيوشكفتش و سوفاروف)، ثم هنالك كتاب "المادية و الواقعية

النقدية" ل إيوشكفتش، و كذلك كتاب "الديالكتيك على ضوء النظرية المعاصرة للمعرفة" ل برمان، و كتاب "البناءات الفلسفية للماركسية" ل فلانتينوف .

لقد كان كل هؤلاء الأشخاص، اللذين وحدهم – رغم اختلاف مواقفهم السياسية – يكنون الحقد للمادية الجدلية، ويزعمون أنهم ماركسيون في مجال الفلسفة.

إن ديالكتيك انجلز هو روحانية كما يقول برمان، و تصورات انجلز قد "تقادمت"، يطرحها بازروف بشكل عابر، كشيء بديهي، فالمادية على ما يظهر قد تم دحضها من طرف هؤلاء المحاربين الشجعان، اللذين يستمدون العون باعتزاز من "النظرية المعاصرة للمعرفة"، "الفلسفة المعاصرة" (أو"الوضعية المعاصرة")، "فلسفة العلوم الطبيعية المعاصرة"، بل حتى "فلسفة العلوم الطبيعية للقرن العشرين" " لينين، المجلد 13، الطبعة الروسية.

في جواب على لونتشارسكي، الذي، في محاولة لتقديم التبرير لأصدقائه التحريفيين في الفلسفة، يقول: "من الممكن أن نضل، لكننا نبحث" جاء رد لينين كما يلي: "فيما يخصني، فأنا باحث في الفلسفة... لقد ألقيت على نفسي مهمة البحث عما يسقط في معضلة، هؤلاء الناس، اللذين يقدمون لنا بلون ماركسي، شيئا غير منسجم بشكل لا يصدق، غامض و رجعي".

الجزء الثاني

أمام الهجوم التحريفي و أنصاره، من أتباع ماخ و أفيناريوس و تلامذتهم الروس من أمثال بوجدانوف و بازاروف، الهجوم الذي استعمل قناع الماركسية، ليشن أخطر هجوم عليها استهدف المبادئ النظرية للماركسية (المادية الجدلية و المادية التاريخية)و أمام تلكؤ بليخانوف و آخرون، اللذين ما أن دبجوا بعض المقالات النقدية للتيار التحريفي الجديد، حتى أخلوا الساحة لأنصاره ليعبثوا فيها بترهاتهم و آرائهم الرجعية، و كان على لينين أن يتحمل عبئ المسؤولية التاريخية في التصدي للأطروحات الفلسفية التحريفية المتشدقة بالاكتشافات الجديدة للعلوم الطبيعية، و خاصة علم الفيزياء .

كان على لينين أن يقوم بتعميم مادي لكل ما أنتجته العلوم الحديثة للطبيعة خلال مرحلة تاريخية، أي منذ وفاة انجلز وإلى حدود صدور كتاب لينين "المادية والمذهب النقدي التجريبي". هكذا، و بعد نقد صارم للنقديين التجريبيين الروس، و أساتذتهم الأجانب، توصل لينين إلى الخلاصات التالية حول تحريفيتهم النظرية و الفلسفية:

يقول لينين بصدد هؤلاء:

"هناك تشويه ماكر أكثر فأكثر للماركسية، و تزوير ماكر أكثر فأكثر أيضا، من طرف مذاهب معادية للمادية، هذا ما يميز التحريفية المعاصرة، سواء في الاقتصاد السياسي أو في قضايا التكتيك، و في الفلسفة بشكل عام". "كل مدرسة ماخ و أفيناريوس تسير نحو المثالية". "إن أنصار ماخ يغوصون كلهم في وحل المثالية". "إنه لمن المستحيل ألا نميز أن ما يوجد خلف السكولاستيك و العرفانية للمذهب النقدي التجريبي، هو صراع أحزاب في الفلسفة، صراع، يترجم في آخر المطاف وجود اتجاهات و إيديولوجيات الطبقات المتعادية في المجتمع المعاصر".

"إن الدور الموضوعي، الدور الطبقي للمذهب النقدي التجريبي، يمكن اختزاله بالكامل في خدمة النزعة الإيمانية و الإيمانيين (رجعيون يفضلون الإيمان على العلم) و ذلك في صراعهم ضد المادية بشكل عام، و ضد المادية التاريخية بشكل خاص".

و يضيف لينين: **"إن المثالية الفلسفية هي طريق الظلامية الدينية".**

لقد فشلت ثورة 1905، و بذلك لم تتحقق الأهداف الأساسية للثورة، ونعني بها أن القيصرية لم يتم إسقاطها، و الفلاحون لم يستفيدوا من أراضي الإقطاعيين، كما لم يحقق العمال مطلب العمل 8 ساعات في اليوم، و بعد الفشل، قامت القيصرية الروسية بخنق القليل من الحريات السياسية التي انتزعتها الجماهير إبان الثورة.

هكذا لم تتغير الأسباب التي ولدت ثورة 1905، بل ظلت كاملة. أمام هذا الوضع، ظل البلاشفة على قناعتهم بإمكانية مجيئ انطلاق حركة ثورية جديدة، و كانوا يستعدون لها عبر محاولات جادة، من أجل إعادة تجميع قوى الطبقة العاملة. و بطبيعة الحال، ظل الهدف السياسي الأساسي هو نفسه كما هو خلال ثورة 1905، أي قلب النظام القيصري، إنهاء الثورة الديموقراطية البورجوازية و الانتقال إلى الثورة الاشتراكية. لقد ظل البلاشفة يبلورون شعاراتهم الثورية أمام الجماهير، و ذلك من قبيل:

جمهورية ديموقراطية، انتزاع أراضي الملاكين العقاريين الكبار، ويوم عمل من ثمان ساعات.

لقد كانت تكتيكات البلاشفة خلال الثورة(1905) تدعو إلى الإضراب السياسي العام و الانتفاضة المسلحة، أما بعد فشل الثورة، و تأثير نتائجها السلبية، حيث تراجعت الحركة الثورية للجماهير، و دب الإحباط وسط الطبقة العاملة، و تعززت القوى المضادة للثورة، و أصبح لزاما ضرورة تغيير التكتيك الهجومي لصالح تكتيك دفاعي عبر إعادة تجميع القوى و تنظيم التراجع بعودة الأطر إلى العمل السري ضمن النشاط السري للحزب، مع أخذ بعين الاعتبار ضرورة الجمع بين العمل السري و العمل العلني داخل المنظمات الجماهيرية العلنية، و خاصة المنظمات العمالية .

لا يمكن إدراك خطورة الأوضاع، التي كان يعيشها البلاشفة آنذاك، دون إدراك وضعية خصومهم داخل الحزب، المناشفة، فعندما كان البلاشفة يدعون إلى التعلم من الدروس، و تنظيم عملية التراجع و الانتقال إلى العمل السري، بما يعني الحفاظ و تعزيز الجهاز السري للحزب، دون إغفال استغلال الإمكانيات القليلة المتاحة للعمل داخل المنظمات الجماهيرية لتعزيز

علاقتهم بالجماهير، ظهرت من داخل المناشفة تيارات لا تؤمن بإمكانية عودة الانطلاقة الثورية، ومن تم دعوتها التصفوية لحل تنظيمات الحزب، و هي الظاهرة التي أطلق على أصحابها اسم التصفويين، اللذين حاربهم لينين و البلاشفة .

يقول لينين عن هذه الفترة:

"لقد عرفنا كيفية الاشتغال خلال سنوات طويلة قبل الثورة، فإنه ليس بدون سبب أن يقال عنا: صلب كالصخر. لقد شكل الاشتراكيون – الديموقراطيون حزبا بروليتاريا، الذي لن يترك نفسه يصاب باليأس نتيجة فشل هجوم عسكري أول، لن يفقد صوابه، ولن يمشي نحو المغامرات" (لينين "الأعمال المختارة" مجلد 1).

هكذا إذن، حافظ البلاشفة على التنظيم السري للحزب(الجهاز)، وعبره قيادة المنظمات الجماهيرية، مما سمح، بل، و ضمن للحزب إمكانية تطبيق خطه السياسي الصحيح، و من تم إعداد القوى لانطلاقة ثورية جديدة، و سيخوض الحزب صراعا سياسيا و إيديولوجيا، سواء من جهة اليمين (ضد التصفويين) اللذين اعتبرهم وكلاء البورجوازية اللبرالية داخل الحزب، وقام الحزب من خلال لقاء بباريس في دجنبر 1908 باتخاذ قرار طرد التصفويين من صفوفه، لكن المناشفة لم يخضعوا لقرار الحزب، فانزلقوا نحو الخيانة و التصفية، واقتربوا أكثر من حزب الكاديت، كما تخلوا عن البرنامج الثوري (لذلك سموا بالحزب العمالي لستولبين) و كان على رأس التصفويين كل من دان و أكسلرود و بتريسوف، و ساعدهم في مهامهم كل من تروتسكي و مارتوف و آخرون.

أما التيار الثاني الذي واجهه لينين و البلاشفة فقد عرف باسم الأوتزوفيين (من الروسية أوتوزفات و تعني استدعاء) و كان على رأس هذا التيار كل من بوجدانوف و لونتشرسكي و ألكسينسكي و بوكروفسكي و روبنوف و آخرون. لقد خاض هؤلاء جميعا صراعا حادا ضد لينين و ضد الخط اللينيني. لقد كان الأو تزوفيون يرفضون بشكل قاطع العمل في النقابات العمالية و الجمعيات الشرعية والبرلمان محاولين عزل الحزب عن الجماهير، محاولين التقوقع داخل التنظيم السري، معرضين الحزب للخطر، لأنه سيعدم أي غطاء شرعي لعمله. لم يكن الأتزوفيون يدركون أن استعمال الدوما (البرلمان الروسي) من طرف البلاشفة كان هدفه التأثير على الفلاحين، و فضح سياسة الحكومة القيصرية و حزب الكاديت، الذي كان يحاول كسب الفلاحين إلى جانبه.

لقد كان الأو تزوفيون يعرقلون تجمع القوى، و الاستعداد لانطلاقة ثورية جديدة، لقد كانوا كما قيل "تصفويون بالمقلوب". و عندما اجتمع المجلس الموسع لهيئة تحرير الجريدة البلشفية "بروليتاري"، الذي انعقد سنة 1909، أعلن إدانته للأوتزوفيين، و تم طردهم من المنظمة البلشفية.

هكذا كان التصفويون و الأوتزوفيون كما قيل، و في كل الأحوال، مجرد رفقاء طريق بورجوازيين صغار، صاحبوا في لحظة ما البروليتاريا و حزبها الثوري.

و قد عرفت هذه الفترة صراعا مريرا ضد تروتسكي، الذي كان يساند المناشفة التصفويين، فخلال هذه الفترة أطلق لينين على تروتسكي اسم "جودا الصغير". و بالفعل، فقد كان تروتسكي هو منظم "كتلة غشت" التي كانت تضم كل المجموعات و

الاتجاهات المعادية للبلشفية، و التي توحدت ضد لينين و الحزب البلشفي (الأوتزوفيون و التصفويون)، فقد كان التروتسكيون يخفون موقفهم التصفوي بقناع الوسطية و التصالح، باعتبارهم خارج الأجنحة و الاتجاهات. هكذا، صح عليهم قول ستالين: **"إن الوسطية مفهوم سياسي و إيديولوجية، هي أقلمة و إخضاع مصالح البروليتاريا لمصالح البورجوازية الصغيرة وسط حزب مشترك واحد. إن هذه الإيديولوجية غريبة عن، و منافية للينينية"**. (مسائل اللينينية- ستالين).

لم يكن تاريخ الصراع ضد الاقتصادويين و المناشفة و التروتسكيين و الأوتزوفيين و كل المثاليين في الفلسفة، كما هو الحال بالنسبة للنقديين التجريبيين، سوى تاريخ تشكل حزب ثوري من طراز جديد، **حزب الثورة الاجتماعية و حزب دكتاتورية البروليتاريا.**

وعند محطة 1912،عندما نضجت الظروف، بعدما اكتسب البلاشفة كل أسلحة بناء حزب ثوري من طراز جديد، التي وضع أسسها الإيديولوجية و النظرية كتاب "ما العمل"، و صاغ نظريتها التنظيمية كتاب "خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الوراء"، و برنامجها التكتيكي الثوري كتاب "خطتا الاشتراكية الديموقراطية في الثورة الروسية" ،و دعم أسسها الفلسفية كتاب "المادية و المذهب النقدي التجريبي"، انعقدت الندوة الوطنية السادسة للحزب في مدينة براغ في يناير 1912، و قد تمثلت في هذه الندوة أكثر من 20 منظمة حزبية، و قد كانت الندوة بالفعل بمثابة مؤتمر للحزب، و كان من مهمتها، و من واجبها، تتويج كل

الأعمال التي قام بها البلاشفة بقيادة لينين منذ 1900 و إلى حدود انعقاد الندوة، و هكذا توجت الندوة بطرد المناشفة و تأسيس الحزب العمالي الاشتراكي – الديموقراطي البلشفي .

لينين و كتاب "المادية و المذهب النقدي التجريبي"

بعد هزيمة ثورة 1905، أصبح لينين مبحوثا عنه، بل و مطاردا من طرف البوليس السياسي للنظام القيصري (الأوخرانا)، في البداية اختفى لينين في فلندا، و قد ساعده الرفاق الفلنديون على مغادرة البلاد إلى الخارج."مخاطرا بحياته، ماشيا على الجليد الذي ما زال رقيقا، وصل لينين إلى السفينة البخارية، التي كانت تتهيأ للذهاب إلى ستوكولهم، و التي كان قبطانها على علم بالأمر، و في لحظة ما، انشق الجليد تحت قدميه، "يا لها من موتة غبية" قالها لينين محدثا نفسه. لقد وجد صعوبة كبيرة للوصول إلى غاية السفينة، التي كانت ترسو بين الأرصفة. و في ستوكلهم انتظر بعض الأيام وصول كروبسكايا، التي بقيت في بترسبورغ، وذلك للذهاب إلى سويسرا، و في طريقهما إليها توقفا في برلين، و ذهبا لرؤية روزا لوكسمبورغ .. لقد كان لديهم الكثير مما يقال خاصة بعد الأحداث التي وقعت أخيرا" (انظر كتاب "لينين في جنيف" ص 130).

وصل لينين إلى جنيف في 7 يناير 1908 برفقة كروبسكايا. عند حديثه عن المرحلة الستولبينية يقول لينين:

"سنوات الرجعية 1907 – 1910" لقد انتصر القيصر، و قد تم سحق كل الأحزاب الثورية، أو أحزاب المعارضة، وهن، هبوط معنويات، انشقاقات، إفلات بالجلد، ردة، بورنوغرافيا بدل السياسة، اتجاه متسارع نحو المثالية الفلسفية، نزعة روحانية، التي تستخدم كقناع للروح المعادية للثورة" (لينين، "الأعمال،" باريس-موسكو، مجلد 31، ص21).

عند قراءته لكتاب "محاولات في الفلسفة الماركسية" صرخ لينين غاضبا:

"لا ليس هذا بماركسية! إنهم يغرقون في مستنقع النقدية التجريبية و التجريبية الواحدية و التجريبية الرمزية" (مجلد 47، ص.ص 142.143، الطبعة الخامسة الروسية)**.**

لقد أصبح لزاما التصدي لهذا المذهب النقدي التجريبي، باعتباره أحد منوعات التحريفية على المستوى الفلسفي، و كان مرة أخرى على لينين أن يتحمل هذه المسؤولية التاريخية في دحض التجريبية النقدية، كما فعل سابقا مع الاقتصادوية الاتجاه التحريفي الآخر، الذي انتشر نهاية القرن 19، بداية القرن 20 داخل الحركة الاشتراكية – الديموقراطية الروسية (انظر في هذا الصدد كتاب "ما العمل" و مشروع "الإسكرا" اللينيني، اللذان ساهما في هزم "الاقتصادوية").

لقد بدأ لينين يشتغل على كتابه "المادية و المذهب النقدي التجريبي " في فبراير 1908، و يقول لينين في هذا الصدد بالنسبة لهذه الفترة:

"لقد أهملت الجريدة بسبب إدماني الفلسفي ..." "... أقرأ على امتداد اليوم هؤلاء المنحوسين الماخيين ..." مجلد 34،.ص 401. 405.

في سياق إعداده لمادة الكتاب، لم يكتف لينين بالعمل في جنيف، بل انتقل في ماي من نفس السنة إلى إنجلترا لدراسة وثائق مكتبة المتحف البريطاني. لقد استعمل لينين أكثر من 200 مجلد و مقال، بما فيها أعمال بالإنجليزية و الفرنسية و الألمانية.

يقول لينين في مراسلة مع أخته، خلال صيف نفس السنة:

"لقد اشتغلت كثيرا حول الماخيين، و أظن أنني قمت بتحليل كل تفاهاتهم، التي لا يمكن إنكارها (و كذلك نفس الشيء بالنسبة للتجريبية الواحدية)" لينين، مجلد 55، ص، 252، طبعة روسية.

انتهى لينين من كتابة مؤلفه "المادية و المذهب النقدي التجريبي" في أكتوبر 1908، و في نونبر 1908، أرسل لينين مخطوطه إلى روسيا، و بالضبط إلى أحد أصدقاء عائلة أوليانوف، الطبيب ف. ليفيتسكي، و بفضل مجهودات أخته أوليانوفا، و كذلك إليزاروفا، تم التوصل إلى إيجاد ناشر، **وهكذا نشر كتاب لينين في ماي 1909 في موسكو، و صدرت منه ألفين نسخة.**

إن كتاب "المادية و المذهب النقدي التجريبي " هو الكتاب الفلسفي الرئيسي للينين، وقد لعب دورا بارزا في المعركة الإيديولوجية، التي خاضها البلاشفة ضد النقديين التجريبيين، واضعا بذلك الأسس النظرية و الفلسفية لمبادئ الحزب

الماركسي الثوري، مساهما في هذه السنوات السوداء في إعادة تجميع قواه و تعزيز ذاته، استعدادا للمعارك المقبلة. وقد لعب هذا الكتاب دورا هاما في تكوين الأطر الشيوعية على الصعيد العالمي، و اليوم لا زال يحتفظ براهنيته، و لا يستطيع أي ماركسي – لينيني حقيقي تجاهله و الاستغناء عنه، إن هو أراد تأكيد انتمائه إلى الماركسية – اللينينية، و ليس لقشورها.

الجزء الثالث

يحتل كتاب "المادية و المذهب النقدي التجريبي" أهمية كبرى في تاريخ الفكر المادي الجدلي، و قد كان صدوره في سياق عالمي عرف انتشار و سيادة التحريفية على كل المستويات داخل الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية خاصة الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني، أكبر حزب اشتراكي أوروبي، لقد كان الاتجاه بقيادة كارل كاوتسكي يعطي الأهمية للمادية التاريخية فقط و يتنكر لتعاليم ماركس و انجلز حول المادية الجدلية، و هو الأمر الذي أدى بالتحريفيين على عادتهم إلى إخفاء مخطوط كتاب انجلز "جدلية الطبيعة"، الذي لن ينشر لأول مرة إلا سنة 1925 في الاتحاد السوفياتي و ذلك بعد وفاة لينين، الذي لم يقرأ الكتاب، لكن لينين العظيم رغم ذلك توصل في أبحاثه إلى نفس خلاصات انجلز.

وقد سبق للينين أن درس كتاب "أنتي دوهرينغ" واستوعب أطروحاته، واقتنع اقتناعا صلبا و رصينا بأن ما يبرر إمكانية المادية التاريخية هو المادية الجدلية، فالصراعات الطبقية مثلا لا يمكن فهمها و إدراكها بدون فهم و إدراك ماهية الكون، و قد قال انجلز أن:

"وحدة العالم توجد في ماديته" و "المادة بدون حركة هي شيء لا يمكن تصوره كما هو الحال بالنسبة للحركة بدون مادة".

لقد صدر كتاب لينين في بلد كان يعرف حركة اشتراكية ديموقراطية متطورة جدا، و يعرف حركية فكرية متقدمة، بينما العديد من الدول الأوروبية، كانت فيها الحركة الاشتراكية الديموقراطية تتأرجح بين الإصلاحية الفكرية و السياسية و "النقابية الثورية" الرافضة للعمل السياسي و لمفهوم الحزب الإيديولوجي (المثال الفرنسي نموذجا).

لقراءة كتاب لينين "المادية والمذهب النقدي التجريبي" لا بد من التمييز بين عناصره المشكلة للحقائق العامة، وبين تفاصيله الملتصقة بالوضع المحلي الروسي (أحداث، أشخاص، أسماء ...) التي يضيع فيها القارئ ويفقد الخيوط الرابطة على حساب العناصر الأساسية للكتاب، الفلسفية والعلمية.

يقول لينين في مقدمة لكتابه، الذي أعيد نشره سنة 1920:

"أتمنى ألا يكون غير ذا فائدة، باستقلال عن البوليميك مع تلامذة ماخ الروس، كمقدمة لفلسفة الماركسية، للمادية الجدلية، وللاستنتاجات الفلسفية المستخلصة من اكتشافات علوم الطبيعة".

و في تصديه لسؤال، هل كتابات ماركس وانجلز خالصة و كاملة، يقول لينين: قطعا لا، فحسب لينين، بإمكاننا تصحيح بعض الأخطاء، تصحيح اتجاه بعض النقط، لكن في كل الأحوال لا يمكن مراجعة مادة (لب، جوهر) الماركسية، و المعيار الكبير هو المادية الجدلية و ليس فقط المادية.

و في حديثه عن السياق الفلسفي الروسي إبان صدور الكتاب، يقول لينين:

"كل واحد يعرف قليلا عن الأدبيات الفلسفية، لابد أن يعرف أنه من الصعوبة إيجاد أستاذ فلسفة (أو ثيولوجيا) لم يهتم بشكل مكشوف أو بطرق ملتوية، بدحض المادية".

ويرى لينين أن المادية يمكن أن توجد بشكلين:

- شكل المادية التي تتبناها البورجوازية، ومثل كانط قمتها الأكثر تقدما.

- شكل تحمله البروليتاريا، وهو المادية الجدلية التي قام بالتنظير لها كارل ماركس و فردريك انجلز.

تاريخيا، و في ألمانيا العاجزة عن القيام بثورة بورجوازية ضد الإقطاع، وذلك لتخلفها التاريخي، قام كانط بتوافق فلسفي مع الفكر الديني الإقطاعي، عندما قال بأنه لا يعرف لماذا الأشياء توجد، و هذا بالنسبة له ثانوي، بينما الذي يهم هو العلم، و هذا يعني الفهم الذي يفكر في طبيعة الأشياء التي يتم الإحساس بها، و هذا يعني أننا لا نعرف طبيعة الأشياء إلا من خلال العلاقة معها، أما ماهية الأشياء في الواقع، يقول كانط أنه لا يعرفها، لأن لها بعدها الخاص بها، و هو ما أطلق عليه اسم **"الأشياء في ذاتها"**، بمعنى الأشياء التي لا نستطيع معرفة جوهرها .

و قد توصل لينين بعد انجلز، إلى أن هناك معسكرين في مجال الفلسفة، المعسكر المثالي و المعسكر المادي (بعدما تحولت المادية البورجوازية إلى رجعية، نشأت المادية الجدلية الثورية) إلا أن بعض الماركسيين قاموا بمحاولة لتحريف المادية الجدلية نحو المادية البورجوازية، و هذا الشكل أسماه لينين ب "التجريبية النقدية"، و هذا يعني أن هناك معسكرين و ثلاثة أشكال: المثالية، المادية الجدلية و التجريبية النقدية.

عند معالجته للموضوع، استعاد لينين الطريقة نفسها التي اتخذها انجلز في بلورته للإشكالية، عندما قال بأن، بالنسبة للماديين أن الطبيعة هي المعطى الأول و الفكر هو المعطى الثاني، و بالنسب للمثاليين فالعكس، وبين المعسكرين وضع انجلز أنصار دفيد هيوم(فيلسوف واقتصادي ومؤرخ بريطاني ، 1711-1776) وايمانويل كانط(فيلسوف الماني،1724-1804)، اللذين أطلق عليهم اسم اللاأدريون (Agnostiques) أي أولئك اللذين ينكرون إمكانية معرفة العالم، أو على الأقل معرفته بشكل عميق، و بذلك اعتبرت الكانطية الجديدة التي انتشرت وسط الاشتراكية الديموقراطية الألمانية على يد برنشتاين و أتباعه نوعا من اللاأدرية.

وإذا كان بالنسبة للماركسية، و بالنسبة للماديين، الفكر هو انعكاس للواقع المادي، أما بالنسبة للمثاليين فهو العكس.

ويعني ذلك بالنسبة للمثاليين، أننا نفكر بطريقة مستقلة عن الواقع المادي، بمعنى اننا نفكر فيما ندركه عبر حواسنا، فالألوان مثلا باعتبارها كذلك، لا توجد و لا توجد إلا في علاقة بنا، و بالملموس عن طريقنا، و هذا ما يسمى التفكير بإرادة حرة (Libre-Arbitre).

- بيركلي وفلسفة "أن توجد الأشياء يعني أن تكون مدركة"

اختار لينين نموذجا للفلسفة المثالية فاستعمل مقتطفات من كتابات جورج بيركلي (فيلسوف مثالي ورجل دين ايرلندي،1685 – 1753) الفلسفية.

يقول بيركلي:

"لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن الحديث عن الوجود المطلق للأشياء بدون أن نهتم بما إذا كان أحد يدركها، أن توجد(الأشياء) يعني أن تكون مدركة".

"في الواقع، الشيء و الإحساس ليسا إلا شيئا واحدا (The same thing) و بالتالي لا يمكن أن يشتق أحدهما من الآخر" .

"إن وجود المادة، أو أشياء غير مدركة، لم تكن فقط نقطة الارتكاز الرئيسية للملحدين و الجبريين، بل إن عبادة الأوثان (Idolâtrie) بكل أشكالها تعتمد على نفس المبدأ" .

و بعد قوله أنه لا ينكر وجود الأشياء، كيفما كانت، يضيف بيركلي:

"إن الشيء الوحيد الذي ننكر وجوده، هو ما يسميه الفلاسفة مادة أو شيئا ماديا. إن إنكار ذلك لا يشكل أي ضرر لباقي النوع البشري، بحيث يمكن أن أتجرأ على القول، بأنه لن يدرك أبدا غيابه. بينما الملحد يحتاج إلى هذا الشبح باسم فارغ من المعنى، و ذلك لتأسيس إلحاده".

لقد استطاع لينين في كتابه "المادية و المذهب النقدي التجريبي" أن يحقق أمران:

أولا، كونه فصل بين المادية و المثالية.

ثانيا، قام بدحض العديد من الكتاب الروس، اللذين كانوا يتموقعون في صف المادية قولا، و يعودون إلى المثالية فعلا، والأمر هنا يتعلق ب "التجريبيين النقديين" الروس.

ولإنجاز مهمته، ولتعرية و فضح هؤلاء و أولئك من "النقديين التجريبيين"، عاد لينين إلى دراسة آباء المادية الأوروبية، و في مقدمتهم الفيلسوف الموسوعي المادي دنيس ديدرو (كاتب وفيلسوف وموسوعي فرنسي من عصر الأنوار، متعدد الاهتمامات والمواهب: روائي، كاتب مسرحي، قاص، ناقد فني وأدبي ومترجم...،1713-1784) .

- ديدرو و نظرية البيانو القيثاري (Clavecin)

اعتمد لينين في أحد مراجعه حول الفلسفة المادية على دونيس ديدرو، حيث قدمه كفيلسوف يلخص الأطروحة المادية، يقول لينين:

"بالنسبة للماديين، فإن أستاذ الموسوعيين ديدرو يقول عن بيركلي: "إننا نسمي مثاليين أولئك الفلاسفة، اللذين لا يعون إلا وجودهم، و الأحاسيس التي تتوالى في داخلهم، لا يقبلون أي شيء آخر: نظام سخيف يظهر لي أن ولادته قد ارتبطت بناس عمي، نظام، يا لفضيحة العقل الإنساني و الفلسفة، الذي تصعب جدا محاربته، رغم أنه الأكثر سخافة من بين الكل".

يعرض ديدرو مواقفه خلال حوار مع دالامبير (فيلسوف موسوعي وعالم فيزياء ورياضيات فرنسي وكذلك موسيقي ومنظر موسيقي وكاتب ومهندس ومترجم....،1717-1783) من خلال مثال البيانو القيثاري قائلا:

"لنفترض أن بيانو قيثاري له إحساس وذاكرة، و قل لي إن كان لن يردد المعزوفات لوحده، التي تم تنفيذها على لوحة المفاتيح، إننا آلات تمتلك إحساسا و ذاكرة. إن حواسنا بمثابة لوحة مفاتيح منقوشة من طرف الطبيعة المحيطة بنا، التي تضغط على نفسها بنفسها، و هذا في تقديري كل ما يجري في البيانو القيثاري المنظم مثلك و مثلي".

و عن سؤال وجهه له دالامبير، الذي قال فيه أن هذا البيانو القيثاري لابد أن يكون مزودا بملكة الأكل و القدرة على التوالد، هذا بلا شك كان جواب ديدرو، ثم قال له، انظر إلى هذه البيضة:

"إننا بهذه سنقلب كل مدارس الثيولوجيا و كل معابد الأرض. فما هي هذه البيضة؟ إنها كتلة بدون إحساس قبل أن تدخلها البذرة، و بعد دخولها، ماذا أيضا؟ إنها كتلة بدون إحساس ذلك أن هذه البذرة ليست هي نفسها سوى سائل جامد و فظ.

كيف انتقلت هذه الكتلة إلى تنظيم جديد، إلى الإحساس، إلى الحياة؟ عن طريق الحرارة. و من ينتج الحرارة؟ الحركة. إن هذا الحيوان الذي خرج من البيضة مزود بكل عواطفك، إنه قادر على تنفيذ كل أفعالك".

و في رده على اعتراض دالامبير، القائل بأن هذه الفرضية تقبل صفة، هي جوهريا تتنافى مع المادة، قال ديدرو:

"من أين تعرف أن الإحساس يتنافى جوهريا مع المادة أنت الذي لا تعرف جوهر أي شيء سواء كان مادة أو إحساسا؟ هل تدرك جيدا طبيعة الحركة و وجودها في جسم معين و انتقالها من جسم إلى آخر".

و يضيف ديدرو في مكان آخر:

"لا يوجد في الكون سوى مادة واحدة في الإنسان و في الحيوان، إن المنغرة (la Serinette) من خشب و الإنسان من لحم و طائر الكناري من لحم، و الموسيقي من لحم منظم بشكل مختلف، لكن هذا و ذاك لهم أصل واحد، تكون واحد، و نفس الوظائف و نفس الغاية" .

لقد أوردنا هذه الفقرات لإعطاء فكرة عن القراءات التي قام بها لينين في ما يخص الفلسفة الأوروبية، و خاصة فلسفة القرن 18، في سياق بحثه عن صياغة أدق للأسئلة الفلسفية لمواجهة الماخيين و أنصارهم في روسيا، و عندما انتهى من طرح الإطار المناسب للنقاش انطلق في هجومه على منظري الفلسفة الماخية ممن سموا ب "النقديين التجريبيين".

بداية، سيقوم لينين بشرح الموقف الفلسفي لعالم الفيزياء و الفيلسوف إرنست ماخ (1838 – 1916)، و نفس الشيء بالنسبة للفيلسوف الألماني ريشارد أفيناريوس (1843 – 1896)، وهؤلاء هم أساتذة الماخيين والنقديين التجريبيين، و يرى لينين أن أطروحاتهما قريبة جدا من مثيلاتها عند هنري برغسون (فيلسوف فرنسي،1859-1941).

فماذا يقول ماخ: "ليست الأشياء (الأجسام) بل الألوان و الأصوات و الضغوطات و الفضاءات و المدد (ما نسميه عادة بالإحساسات) التي هي العناصر الحقيقية للعالم".

هناك، حسب لينين مقاربة بسيكولوجية توجه المعرفة نحو ما يمكن أن يكون حياة داخلية خاصة بكل واحد، أي أن ما هو واقعي هو ما ندركه، و ما ندركه فهو جزئي مقارنة بكلية الواقع. و يلخص لينين أطروحات الفيلسوفين:

"بالنسبة لكل عالم لم تحرف طريقه الفلسفة الأستاذية، و نفس الشيء بالنسبة لكل مادي، فإن الإحساس هو بالفعل الرابط المباشر للوعي مع العالم الخارجي، ليس كصورة ظاهرة خارجية توافق الإحساس، بل كمعطى وحيد موجود".

لما تحدث لينين عن تلامذة ماخ وافيناريوس الروس، اتهمهم بالعودة إلى المثالية باستعمال قناع المادية، و ذلك بسبب قولهم، الذي يرى أن الإحساسات تعبر عن نفسها في الدماغ عبر تركيبات ل "عناصر".

فأنتم يضيف لينين:

"قولا تبعدنا التعارض بين الفيزيائي و النفسي، بين المادية (التي تعتبر الطبيعة المعطى الأول) و المثالية (التي تعتبر العقل، الوعي، الإحساس المعطى الأول)، لكنكم في الواقع تعيدونها بسرعة خلسة متخلين عن مبدئكم الأساس! لأنه، إذا كانت العناصر إحساسات، فليس لكم الحق بقبول لحظة واحدة وجود عناصر خارج تبعيتها لأعصابي و لوعيي، لكن، و من اللحظة التي تقبلون فيها الأشياء المادية باستقلال عن أعصابي و إحساساتي، و التي لا تثير الإحساس إلا بالتأثير على شبكية العين، فإنكم تتركون هنا بشكل مخجل مثاليتكم الحصرية لصالح مادية حصرية.

إذا كان اللون ليس إلا إحساسا، بسبب تبعيته لشبكية العين (كما تلزمكم بقبوله علوم الطبيعة)، فهذا يستتبع أن الأشعة المضيئة تحصل بوصولها إلى شبكة العين. إن الإحساس باللون يعني، أنه خارج ذاتنا، باستقلال عنا و عن وعينا، توجد حركات للمادة، لنقول موجات الأثير بطول و سرعة محددتين تؤثر على شبكة العين، يحصل من خلالها الإنسان على إحساس بهذا اللون أو ذاك. ذلك هو موقف العلوم الطبيعية، التي تفسر مختلف الإحساسات، باللون عن طريق الطول المختلف للموجات المضيئة الموجودة خارج شبكة العين الإنسانية، خارج ذات الإنسان و باستقلال عنه. هذا هو التصور المادي: "المادة تولد الإحساس" للتأثير على أعضاء حواسنا. إن الإحساس يعتمد على الدماغ و الأعصاب و شبكة العين ... بمعنى المادة المنظمة بطريقة محددة. إن وجود المادة لا يعتمد على الأحاسيس، إن المادة أولية، و الأحاسيس و الفكر و الوعي هو المنتوج الأكثر تطورا للمادة المنظمة بطريقة ما. تلك هي وجهات نظر المادية بشكل عام و وجهة نظر ماركس و انجلز بشكل خاص".

يرى لينين أن النقديين التجريبيين يزعمون أنهم ماديين، لكنهم يقبلون كما هو الحال بالنسبة لكانط بأنه لا يمكننا معرفة "الشيء في ذاته"، إنهم يعترفون بالأحاسيس، لكنهم ينكرون طبيعة الانعكاس الكامل للواقع.

يقول لينين: **"... إن المذهب القائل بأن الأجسام هي مركبات أحاسيس، هو وهم مطلق أي الأنانة (سوليبسيزم) (نظرية تؤمن أن الإيمان بالذات أو وعي المرء بذاته هو الشيء الوحيد الموجود)، ذلك لأن العالم من وجهة نظر هاته ليس عندي، إلا وهما".**

إن المشكل الحقيقي عند هؤلاء الماديين المزيفين، هو عندما يرفضون المثالية بطريقة شكلية، ففي الواقع يجدون صعوبة في قبول ان الإحساس هو صورة خارجية عن العالم، فبالنسبة لهم، فالإحساس لا ينقل حقيقة الأحاسيس، أي كلية العالم المطبوع في الدماغ البشري، الذي لا يقوم إلا بعكسه (من الانعكاس) ، إننا أمام اختيار : الحدس، القرار، الإرادة الحرة ... و بشكل مؤكد لا يتعلق الأمر هنا بنظرية الانعكاس. بالنسبة لهؤلاء فإنه يوجد عالم "نفسي"، و لذلك تجد توجها متكررا للماركسيين المزيفين في القرن العشرين نحو التحليل النفسي، أو نحو البسيكولوجيا كما هو الحال بالنسبة لمدرسة فرانكفورت مع تيودور أدورنو، و ماكس هوركهيمر و ماركوز، و اتجاهات و مدارس أخرى، التي سقطت في مستنقع الكانطية الجديدة.

يقول لينين: **"إن العديد من المثاليين و اللاأدريين (بما فيهم تلامذة كانط و هيوم) يصفون الماديين بالميتافيزيقية، ذلك أن الاعتراف بوجود عالم خارجي مستقل عن وعي الإنسان، هو تجاوز، حسب ما يظهر لهم، لحدود التجربة (....)"**

الجزء الرابع

النظرية المادية للمعرفة والدحض اللينيني الحاسم للمذهب النقدي-التجريبي

يتأرجح النقديون التجريبيون بين مثالية بيركلي القائل بأن "العالم الخارجي هو إحساسي"، بالإضافة إلى صيغة هيوم القائلة "**إنني أبعد مسألة معرفة هل هناك شيء وراء أحاسيسي**"، وبين المادية، و يزعمون أنهم استطاعوا الارتفاع فوق المادية و المثالية، و بالتالي تصفية التناقض القائم بين التصور، الذي ينتقل من الشيء إلى الوعي و التصور المعاكس. إن هؤلاء اللاأدريين يسيرون تماما في خط فيخته، القائل بأن الإنسان لا يمكن أن يخرج من ذاته، معتقدا أنه ربط بين الأنا و المحيط، **بين الوعي و الشيء، هناك إذن تكرار لبيركلي القائل، "إنني لا أدرك سوى أحاسيسي، و ليس لي بالتالي الحق في افتراض وجود شيء في ذاته"**، أي خارج إحساسي.

حسب لينين، فإن لسان حال النقديين التجريبيين يقول:

"إن العالم هو إحساسي، واللاأنا "مفترض"(مخلوق، منتوج) من طرف أنايانا، إن الشيء مرتبط بشكل لا فصام فيه بالوعي، إن التنسيق الذي لا ينفك بين أنايانا و المحيط، هو التنسيق المبدئي للمذهب النقدي التجريبي، إنه دائما نفس المبدأ، نفس الشيء القديم المقدم تحت علامة تم إنعاشها أو إعادة صباغتها".

يقول لينين كذلك:

"هذه المرة كذلك، فإن الفرق يقوم حصريا في مجال المصطلحات. عندما يقول ماخ بأن الأجسام، هي مركبات أحاسيس، فإنه يتبع بيركلي. وعندما "يصحح نفسه" قائلا بأن العناصر (الأحاسيس) يمكن أن تكون فيزيائية في ارتباط معين و نفسية في ارتباط آخر، فإنه هنا لأدري، و يتبع هيوم.

في فلسفته، لا يخرج ماخ عن هذين الاتجاهين، و يجب أن يكون المرء على سذاجة مفرطة لكي يثق بكلمات هذا الغامض، الذي يؤكد أنه "تجاوز" في الواقع المادية و المثالية".

نجد هنا إذن، محاولة قبول الإحساس، لكن مع الزعم على أنه يذهب إلى العقل، وهذا العقل يقوم بتحريك دورة تأويل للأحاسيس، التي ليست في الحقيقة سوى مركبات أحاسيس، ذلك أن هذا الإحساس يتوفر على حياة مستقلة، والحياة الداخلية

هنا، هو ما يسمح للأحاسيس أن تدرك باعتبارها كذلك، إنه أفق يريد أن يذهب إلى ما وراء المثالية – ذلك أن الإحساس يعترف به - والمادية، ذلك أن الحياة النفسية لا يتم تصورها كانعكاس بسيط - .

في مواجهته لهذا الطرح أخرج لينين حجة منطقية من حجم كبير، تحطم هذه النظرة الأنطروبو مركزية، التي لا ترى وجودا للعالم إلا بوجودنا نحن، ذلك أن هؤلاء الكانطيين الجدد، النقديون التجريبيون، يعتبرون أن وجود عالم مستقل خارج نظرتنا الإنسانية هو أمر مستحيل. و يقول لينين:

"إن علوم الطبيعة لا تسمح بالشك في تأكيدنا القائل أن الأرض كانت موجودة قبل وجود البشرية، أي حقيقة. و هذا أمر مقبول بالكامل من وجهة نظر المادية في المعرفة : وجود ما هو معكوس باستقلال عما هو عاكس (وجود عالم خارجي باستقلال عن الوعي) هو المبدأ الأساسي في المادية" .

ويخلص لينين إلى القول:

"إن تأكيد العلم: الأرض سابقة على الإنسان، هو حقيقة موضوعية. إن هذا التأكيد من علوم الطبيعة لا يتوافق مع فلسفة تلامذة ماخ و نظريتهم حول الحقيقة: إذا كانت الحقيقة شكلا منظما للتجربة الإنسانية، فتأكيد وجود الأرض خارج هذه التجربة الإنسانية لا يمكنه أن يكون حقيقيا".

و يلخص لينين قائلا:

"إن علوم الطبيعة تساند إيجابيا أن الأرض كانت موجودة في حالة، حيث لا الإنسان و لا أي كائن حي بشكل عام كان يسكنها و لا بإمكانه أن يسكنها. إن المادة العضوية هي ظاهرة حديثة، نتاج تطور طويل لم تكن هناك مادة لها إحساس، ليست هناك "مركبات إحساس"، و لا أي أنا من أي نوع كان، مرتبطة "بشكل لا فصام فيه" بالمحيط حسب مذهب أفيناريوس. إن المادة أولية و الفكر و الوعي و الإحساس هي نتاج تطور متقدم جدا: تلك هي النظرية المادية للمعرفة، التي تتبناها غريزيا علوم الطبيعة".

خلاصة القول، نجد أن المثالية تنكر الواقع لصالح العقل (الفكر، الروح) أما المذهب النقدي التجريبي، فلا يفعل ذلك، و لكنه لا يعطي للواقع سوى قيمة جزئية، بمعنى آخر إنه تجريبي ينبني على التجربة، لكنه ليس إلا نقديا، و مع ذلك فإنه يؤمن باستقلالية العقل، و نظريته تقوم على الذهاب و الإياب بين العقل و المادة، و تزعم أنها نظرية ثالثة تتجاوز المادية و المثالية.

يقول لينين:

"إن المبدأ الأول لنظرية المعرفة، هو بدون أدنى شك، أن الإحساس هو المصدر الأول لمعارفنا. بعد قبول هذا المبدأ الأول من طرف ماخ، فإنه يلقي نوعا من الغموض على المبدأ الثاني الهام، الذي هو الواقع الموضوعي المعطى للإنسان في

إحساسه، أو الذي يشكل مصدر الإحساس الإنساني. بالانطلاق من الإحساس، يمكن أن نتوجه نحو الذاتوية، التي تؤدي إلى السوليبسيزم (الأجسام هي مركبات أو تركيبات من الإحساس)، و يمكن أن نتوجه نحو الموضوعية، التي تؤدي إلى المادية (الإحساس هو صورة للأجسام، للعالم الخارجي".

من وجهة النظر الأولى، وجهة نظر اللاأدرية (...) لا يمكن أن تكون هناك حقيقة موضوعية. و بالنسبة لوجهة النظر الثانية، اي المادية، فإنها تعترف بشكل أساسي بالحقيقة الموضوعية.

و يضيف لينين:

"باعتبارنا ماديين، و مع انجلز، نعتبر الكانطيين وتلامذة هيوم، لاأدريين، لأنهم ينكرون الواقع الموضوعي باعتباره مصدرا لإحساسنا (...) إن اللا أدري يقول، إنني أجهل هل يوجد واقع موضوعي منعكس،ممثلا في إحساسنا، و أعلن أنه من المستحيل معرفة ذلك (...) هنا نفي للحقيقة الموضوعية من طرف اللاأدري، و كذلك التسامح البورجوازي الصغير، الحقير و الجبان تجاه الإيمان بالمستأذبين (اعتقاد قديم في فرنسا و أوروبا، يؤمن بكائن أسطوري عبارة عن إنس يتحولون إلى ذئاب يجولون بالليل و يؤذون الناس بالعض فيتحولون بدورهم إلى كائنات شريرة) و العفاريت و القديسين الكاثوليك و أشياء أخرى مشابهة" .

عموما، فاللاأدري يتوقف عند حد الظاهرة، و بالنسبة له، فالشيء في ذاته، الذي لا يعترف به، لا يمكن معرفته.

في سياق دحضه لأطروحات النقديين التجريبيين، قام لينين بتعميق نظرية الانعكاس الماركسية، مقدما إسهامات لينينية جديدة في هذا المجال، جعلت الفلسفة الماركسية و نظرية المعرفة المادية الجدلية حصنا حصينا في مواجهة الأطروحات الفلسفية المثالية بكل تلاوينها، بل أكثر من هذا و ذاك، جعلت المادية جديرة بأن تكون فلسفة الثورة .

- لينين و نسبية المعارف الإنسانية

إذا كان الفكر بالنسبة للمادي هو انعكاس للواقع، فهل هذا الانعكاس أصيل و كامل؟

بالنسبة للمادي، فالمادة ليست ساكنة، كما هو الحال بالنسبة للمثاليين، فعند أرسطو، فالفكر هو انعكاس، لكن ما دام العالم ساكن فالفكر الأصيل يعرف ذروته في تأمل النظام الطبيعي الكوني.

أما في المادية الجدلية، فكل سيرورة هي انعكاس مرتبط بالواقع الذي يتغير و يتحول، وما ينعكس له معنى في علاقة مع حركة المادة نفسها، حيث أن الشخص الذي يفكر هو أحد عناصرها. فليس هناك فكر مستقل و مفصول عن الواقع. **فالموضوعية يجب أن، تكون "محايدة" حسب المنظرين البورجوازيين، و هذا مستحيل من وجهة نظر المادية الجدلية، فالواقع في حركة، و الفكر هو انعكاس مرتبط بكائن يتحرك في إطار ملموس.**

هكذا، فإن ما نعرفه هو نسبي، و في نفس الوقت هو غير نسبي حسب قانون التناقض.

يقول لينين :

"بالنسبة للمادي، فإن العالم هو أغنى، أكثر حياة، أكثر تنوعا مما يظهر، فكل تقدم للعلم يكتشف مظاهر جديدة. بالنسبة للمادي فإحساسنا، هو صورة للواقع الموضوعي الوحيد و الأسمى، و الأسمي ليس بمعنى أن الواقع تمت معرفته بالشكل الكامل، بل بمعنى أن خارجها لا يوجد و لا يمكن أن يوجد شيء آخر".

إن المادية الجدلية تتضمن النسبية، لكنه لا يمكن اختزالها فيها، و هذه أطروحة أساسية. إن أعداء الماركسية، في محاولاتهم ضرب و تخريب المادية الجدلية، ينكشفون بالضبط، عندما يتبنون خطا يقوم على تسطير أهمية النسبية، مما يقود إلى الريبية، و يتهمون المادية الجدلية بالميتافيزيقية، تماما كما يفعل المذهب النقدي التجريبي و الكانطية الجديدة.

و يلخص لينين الموضوع كما يلي:

"بكلمة واحدة، فكل إيديولوجية هي تاريخيا نسبية، لكن الشيء الأكيد هو أن كل إيديولوجية علمية (عكس ما يقع، كمثال بالنسبة للإديولوجيا الدينية) توافقها حقيقة موضوعية، طبيعة مطلقة. إن هذا التمييز بين الحقيقة المطلقة و الحقيقة النسبية مبهم، ستقولون ذلك، و سأجيبكم، إنها "مبهمة" إلى حد ما يمنع العلم من أن يصبح دوغما بالمعنى السيء للكلمة،

شيء ميت، جامد، متكلس، لكنها "دقيقة" بما يكفي لوضع خط فاصل كثيف و غير قابل للانمحاء، بيننا و بين المذهب الإيماني، اللاأدرية، المثالية الفلسفية، و سفسطة تلامذة هيوم و كانط."

"إنه الحد بين المادية الجدلية و النسبوية (...) فالجدلية كما شرحها هيجل، تدمج كلحظة من لحظاتها، النسبية، النفي، الشك، لكنها لا تختزل في النسبية".

إن الموضوعة التي يعالجها لينين هنا لذات راهنية في عصرنا، و يكفي الاطلاع على ما ينشره بعض علماء الفيزياء و الأسطروفيزياء (خاصة من المدرسة الفرنسية النسبوية و التشكيكية) و تهافتهم في شرح قوانين الفيزياء و علاقتها بالكوسمولوجيا، حيث أثر التصورات الإيديولوجية الإنجيلية حاضر بشكل أو بآخر، في تقديم الشروحات حول نظرية "الانفجار العظيم"، فيعيدون إنتاج نظرية الخالق، الذي خلق الكون من عدم (كرياسيونيزم) ...

إن الوهم القائم لدى عدد من علمائنا اليوم حول خلق النظرية الثالثة، التي تتجاوز الحدين الرئيسيين في الفلسفة: المادية و المثالية، يعيد إنتاج نظريات ماخ و أفيناريوس و هيوم.

في مواجهة الماخيين القدامى دافع لينين عن الماركسية، و عن وجهة نظرها ، التي تعترف بالإحساس ضد المثالية، لكن مع الاعتراف بالوعي كانعكاس، و بالممارسة كعنصر حقيقي يسمح بتبني الواقع كما هو، و يقول لينين :

"إن الممارسة هي أحسن دحض للأدرية كانط و هيوم، كما باقي الحيل الأخرى الفلسفية، و كما يكرر انجلز(إن نتيجة عملنا تبين تطابق إدراكاتنا مع الطبيعة الموضوعية للأشياء المدركة، إنه رد انجلز على اللاأدريين)" .

و يرى لينين أن المذهب النقدي التجريبي ليس إلا شكلا وسطيا – و هو أمر مستحيل – بين المثالية و المادية، على قاعدة وجود "عنصر ثالث".

و يشير لينين إلى فكرة هامة، حول ماركس ورفيقه انجلز، قائلا:

"تمظهرت عبقرية ماركس و انجلز، من بين أشياء أخرى، في احتقارها للعبة المتحذلقة للكلمات الجديدة و المصطلحات المعقدة و الإزمات (هي الكلمات التي تنتهي ب ISM (المترجم)) الماكرة، و كذلك ببساطتهما و لغتهما الصريحة: هناك في الفلسفة اتجاه مادي و آخر مثالي، و بينهما مختلف منوعات اللاأدرية. إن المجهودات المحاولة لإيجاد وجهات نظر "جديدة" في الفلسفة تكشف عن نفس الفقر الفكري في المحاولات الشاقة من أجل خلق نظرية "جديدة" للقيمة، نظرية "جديدة" للريـع ...".

و في معرض رده على أحد تلامذة أفيناريوس (يتعلق الأمر هنا بكارستنجن)، الذي حكى أن أستاذه قال مرة خلال حوار خاص: **"إنني لا أعرف لا الفيزيائي و لا النفسي، لا أعرف إلا العنصر الثالث" قال لينين "إننا نعرف لماذا لم يستطع بلورة هذا المفهوم، ذلك أن العنصر الثالث ليس له مصطلح مضاد" "السؤال: ما هو العنصر الثالث؟ ينقصه المنطق".**

- العلم من منظور المذهب النقدي التجريبي:

بالنسبة للمذهب النقدي التجريبي، ليس العلم سوى لغة رمزية بواسطتها ترى الإنسانية فضاءات منظمة بشكل تعسفي ... نحن هنا أمام مثالية ذاتية، العالم الخارجي، الطبيعة، قوانينها، التي ليست إلا رموزا لمعرفتنا، لكنها لبست لباس المهرج بمصطلح "عصري" متنوع و صارخ.

"هكذا، كما يقول لينين، فالقانون القائل بأن الشتاء يتبع الخريف و الربيع يتبع الشتاء، ليس معطى لنا من خلال التجربة، بل تم خلقه عن طريق الفكر، كوسيلة للتنظيم و التنسيق و التركيب، وماذا و بماذا أيها الرفيق بوجدانوف" و يقول أيضا. "إن الكون هو حركة للمادة، تحكمها قوانين، و معرفتنا، نتاج أرقى للطبيعة، لا يمكن إلا أن تعكس هذه القوانين".

و في مكان آخر يقول لينين:

"ليس الفكر هو الذي يمتلك معايير يجب اتباعها، بل الواقع، إذ أن الفكر ليس إلا انعكاسا، و انعكاسا للكلية".

و يضيف في مكان آخر، و هذا أمر مهم جدا:

"إن الفكر الماركسي المزيف يريد "الاعتراف" بالماركسية، لكن ليس الاعتراف بديالكتيك الطبيعة، و هذا بشكل دقيق، بسبب مسألة الكلية، و بشكل لا يمكن تلافيه، إذا نحن اعتمدنا على "الفكر"، و ليس على الطبيعة، نغادر حقل المادية".

لقد اعتبر لينين، أن نقد الماخيين و النقديين التجريبيين عموما، لا يمكن أن يتم دون إثارة علاقة مذهب أستاذهم ماخ بالعلوم، الشيء الذي لم يفعله بليخانوف في نقده لهم، و اعتبر لينين أن فعل بليخانوف ذلك يعد استهزاء بروح المادية الجدلية، بل تضحية في منهج انجلز بروح النص لصالح النص الحرفي، خاصة وأن انجلز قال بشكل واضح: **"على المادية بالضرورة أن تكتسب الصورة الجديدة مع كل اكتشاف هام بادي الأثر في التاريخ"**، و نجد لذلك صدى عند لينين حين يقول: **"إن الذي يطبق النظرية الماركسية، يجب ألا يقف من النظرية موقف المتعبد في محرابها، بل يترجم نصوصها و يتمسك بالحياة والواقع قبل كل شيء، مسترشدا بالنظرية العلمية و متناولا إياها من خلال ارتباطها الجدلي بالواقع الموضوعي، و مقدار تطابق نصوصها و موضوعاتها و تعاليمها مع الواقع التاريخي الملموس".**

إن مراجعة "شكل" المادية بمراجعة بعض مبادئ الفلسفة الطبيعية، لا علاقة له بالتحريفية بالمعنى المتعارف عليه، بل إن الماركسية تطالب بذلك. إن تلامذة ماخ يراوغون، عندما يدعون أنهم ينتقدون الشكل، و هم يخونون جوهر المادية.

إن القاسم المشترك بين المؤسسات البورجوازية، هو إنكار المادة، و الزعم أنه لا يمكن فهمها. هناك، ولا شك في ذلك، أمر شاذ ولافت للنظر في هذا المفهوم للمادة، التي لا يمكن فهمها و الخاضعة لمحض الصدفة و لا يمكن التنبؤ بها.

يعتبر لينين أن المادية الجدلية وحدها يمكنها أن ترشد الفيزياء و إعطائها قاعدة علمية أصيلة، فالمثالية تنكر المادة، تخترع "الحركات" فتراها مستقلة كما لو سقطت من السماء، هناك إذن نوع من "الإحيائية" و "الدينامية".

"إن المادية الجدلية، يقول لينين، تؤكد على الطابع التقريبي، النسبي، لكل اقتراح علمي يخص بنية المادة (...)، و على الغياب لخطوط فصل مطلقة في الطبيعة، و على انتقال المادة المتحركة من حالة إلى أخرى، التي تظهر لنا غير متلائمة مع الأولى" .

"إن الفيزياء الجديدة، يضيف لينين، انحرفت نحو المثالية لأن الفيزيائيين يجهلون الديالكتيك بشكل رئيسي، لقد حاربوا المادية الميتافيزيقية (بالمعنى الذي استعمل فيه انجلز هذه الكلمة، و ليس بالمعنى الوضعي المستلهم من هيوم) مع "ميكانيكيتها" الأحادية الجانب، فألقوا الطفل و الماء الوسخ معا". "بتأكيدهم على الطابع التقريبي، النسبي لمعارفنا، انزلقوا إلى نفي المادة، أي الواقع الموضوعي في الطبيعة والقوانين الطبيعية، مصرحين أنها ليست إلا محض اتفاقات ...".

- بصدد الزمان و المكان:

في معرض دفاعه عن الأطروحة الماركسية حول المادة، التي تتحرك في الزمان و المكان، يحدد لينين أسس الطرح الفلسفي المادي الجدلي لمفهوم الزمان و المكان، يقول لينين:

"باعترافها بوجود الواقع الموضوعي، أي المادة في حركة، باستقلال عن وعينا، و كذلك فإن المادية، تصل بشكل لا يمكن تلافيه، إلى الاعتراف بالواقع الموضوعي للمكان و الزمان، فهكذا، تتميز أولا عن الكانطية، التي بالنسبة لها، كما بالنسبة للمثالية، فإن الزمان و المكان هما شكلان للتأمل الإنساني، و ليست وقائع موضوعية (...)". "ليس الكون إلا مادة في حركة، و هذه المادة في حركة لا يمكن أن تتحرك إلا في الزمان والمكان. إن الأفكار الإنسانية حول الزمان و المكان هي أفكار نسبية، لكن مجموع هاته الأفكار النسبية يعطينا الحقيقة المطلقة: إن هاته الأفكار النسبية تتجه، في تطورها نحو الحقيقة المطلقة، و تقترب منها" .

- فخ الرياضيات و النسبوية:

يقول لينين، أن السبب الأول للمثالية في ميدان الفيزياء، هو أن المحاولات الرجعية تولد من تقدم العلم نفسه، فالتطورات الكبرى لعلوم الطبيعة، و اكتشاف عناصر منسجمة و بسيطة للمادة، حيث قوانين الحركة يمكن تحويلها إلى تعابير رياضية، إن هذا الأمر ينسي المشتغلين بالرياضيات عنصر المادة، فلا تبقى إلا المعادلات، فتتم العودة إلى الفكرة الكانطية، و هي: **العقل يملي قوانينه على الطبيعة.**

و يرى لينين، أن السبب الثاني للمثالية في مجال الفيزياء هو أن مبدأ النسبية، مع جهل الديالكتيك، يؤدي حتما إلى المثالية في الواقع، فوحدها الجدلية المادية، التي تحل، في نظرية صحيحة، مسألة النسبية، و من يجهل ذلك محكوم عليه بالانتقال من النسبية إلى المثالية الفلسفية. لقد كانت الرياضيات "الخالصة"، مقاربة تامة جدا بالنسبة للمثالية في معارضتها للمادية الجدلية.

و من درس الماخيين، اللذين ظهروا على مسرح السياسة و الفلسفة و الفيزياء في سنوات ما بعد ثورة 1905، يصل لينين إلى خلاصة مفادها أن:

"تلامذة ماخ لم يفهموا الماركسية، لكونهم عالجوها بالمقلوب، إنهم استوعبوا – أحيانا أقل من استوعبوا، بل حفظوا عن ظهر قلب، النظرية الاقتصادية و التاريخية لماركس، بدون أن يفهموا الأسس، أي المادية الفلسفية".

إن كتاب "المادية و المذهب النقدي التجريبي"، قد ساهم بشكل كبير في بناء الحزب البلشفي، من خلال هزمه للفلسفة المثالية الماخية، التي كانت وراء أطروحات سياسية تؤدي إلى ضرب وحدة صفوف البلاشفة، و تكرس التشتت و التشرذم و الانهيار الذي تبع هزيمة ثورة 1905، و يعتبر الكتاب، الذي انتصرت فيه المادية الجدلية على النقدية التجريبية بمنوعاتها، سلاحا ثوريا ساهم في خلق أطر شيوعية بلشفية قادرة على قيادة الثورة الاشتراكية، حينما يحين أوانها، بل ساهم في تكوين آلاف الأطر بعد ذلك عبر العالم.

و يحتفظ الكتاب دائما براهنيته، لأنه يزود المناضلين الماركسيين اللينينيين الثوريين بالفلسفة و المنهج الثوري للتصدي لكل الانحرافات، التي تؤدي إليها كل الخطوط البورجوازية و البورجوازية الصغيرة التحريفية، التي تنهل من كل التأويلات و الخرافات، التي تنبع، كما قال لينين، من تقدم العلوم نفسها، حيث ينخرط علماء يجهلون الفلسفة و الديالكتيك في بثها، و ينضاف إليهم فلاسفة يمضون كما قال أحدهم وقتهم في التنبؤ، أي بمعنى ترقب لحظة احتضار العلوم ليحكموا فيها آخر القرابين المقدسة للفلسفة، و ذلك "من أجل انتصار أعظم لله" (ieDamirlog merajM Ad) .

علي محمود

2019 ـ 4 ـ 15